

نافذة على الغرب 6

اليهود

في تاريخ الحضارات الأولى



تأليف : جوستاف لوبون

ترجمة : عادل زعيتر

دراسة وتقديم وتعليق

د. محمود النجيرى

مكتبة النافذة

اليهود

في تاريخ الحضارات الأولى

تأليف: جوستاف لوبون

ترجمة: عادل زعيتر

دراسة وتعليق وتقديم

د. محمود النجيري

الناشر

مكتبة النافذة

اليهود في تاريخ الحضارات الأولى

جوستاف لوبون

الطبعة الأولى/2009

رقم الإيداع: 21255 /2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

تصدير

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

من هو جوستاف لوبون؟

هو مؤرخ فرنسي مشهور، ولد عام ١٨٤١م. عني بالحضارات الشرقية. ومن آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس). (الدين والحياة).

جاء كاتبنا في عصر تقديس العقل، والإيمان بالمادة، وإنكار الغيب، وتقديم العلم على الدين. باعتبار العلم هو الذي حقق التقدم للإنسان، ويسَّر شئون حياته. وأما رجال الدين، فكانوا حربًا على العقل والبحث والنظر في أوربا. فشن عليهم رجال العلم حربًا فكرية بالمقابل، أدت بهم إلى تجريدهم من سلطانهم القديم. وصار السلطان للعلم والعقل وحدهما. وظن هؤلاء أن الدين إلى زوال.

وقد بلغ المذهب العقلي الحديث غلواءه في القرن التاسع عشر، وانتشر الإلحاد بين العلماء، فلا إيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر. وذاعَ ذلك بين طلابهم والمتصلين بهم ذيوعًا ينذر بانتهاء عصر الدين، كما كان يذيعه مروجو هذا العهد في كتبهم ومجلاتهم. وشعر رجال الدين بالخطر؛ فقبعوا في معابدهم، يقرءون الطعن فيهم، والتشهير بهم، ولا يستطيعون دفعًا له.

وفي فرنسا خاصة، ومع نجاح الجمهورية في ترسيخ أقدامها منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، برزت أيديولوجية علمانية سعت إلى تخليص مؤسسات

الدولة، والنظام التعليمي في المقام الأول- من سلطان رجال الدين. وعند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وصل الصراع في فرنسا إلى ذروته: يغذيه حملة "الكراهية" ضد الأقليات اليهودية والبروتستانتية.

ولم يكد القرن العشرون يبدأ، ويهتدي العلماء إلى تفتيت الذرة، في سنة ١٩٠٧م، ويثبت أنها طاقة خفية. وكان قد سبق ذلك اكتشافات أخرى في المادة وقوانينها، حتى أفاق رجال العلم من سباتهم، وأعادوا النظر فيما لديهم من نظريات، ظنوها راسخة.

ومن هؤلاء العلامة **جوستاف لوبون**، فقال في كتابه **"تحوُّل المادة"**:

"كان العالم يختال بالعلم، الذي هو ثمرة جهود بُذلت في عدة قرون. وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضله في كل مجال من مجالاته...".

"دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري، حافظة لقوتها، إلى **أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفاتٌ غيرُ مُنتظرَة، قضتْ على الكفر العلمي، أن يكابد من الشكوك، ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الدهر.** فإن الصرح العلمي الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية، تزعزع فجأة بشدة عظيمة، وصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان، بعد أن كانت من الخفاء، بحيث تكاد لا تبلغها الظنون...".

"تلك المكتشفات التي ذكرتها آنفا، قد كشفت اللثام عن الظنيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة. **وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى، كان العلماء يظنون أنه سلم منه أبد الآبدين...".**

"وقد كتب المسيو لوسيان بوانكاريه (العلامة الرياضي الكبير) يقول: إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تامًا، ويجمع عليها المجربون إجماعًا عامًا، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى، واتسع المجال للاجتراءات الممكنة، ولم يظهر أن ناموسًا من النواميس ضروري ضرورة مطلقة، فنحن نشهد في هذه الآونة أعمالا هي أشبه بالهدم، منها بإقامة بناء نهائي. فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسسا

ثابتا، صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة ".

ثم ختم العلامة جوستاف لوبون هذا الفصل بقوله:

"من حسن الحظ، لا شيء أحسن ملائمة للترقي العلمي من هذه الفوضى. فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها، والحجاب الذي يحجبها عنا منسوخ غالبًا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي. فلا يمكن عمل خطوة للإمام، إلا بعد تفكك عرى الآراء السابقة، والأشد خطرًا على تقدم العقل الإنساني، هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حُلل الحقائق المقررة، على نحو ما تفعله كتب التعليم، والتطاول لوضع تخوم للعلم، ورسم حدود لما يمكن معرفته، كما كان يود ذلك أجوست كونت" اهـ.

وفي رأيي أنه لو قُدر للعلامة جوستاف لوبون أن يعيد النظر فيما سلك من شك وإلحاد في هذا الكتاب لفعل.

لماذا وضع لوبون كتابه؟

١. بيان نصيب اليهود في تاريخ الحضارة. كما يبين لوبون قال:

"ولا أعالج في هذا الكتاب تاريخ الأديان التي سيطرت على الغرب منذ نحو ألفي سنة، وتكوين هذه الأديان، لِمَا يضيق به صدرُ كتاب كهذا الكتاب. ولا أبحث، إذن، في سلسلة الأحوال التي استطاع بها الشعب اليهودي... أن ينشرَ هذه المبادئ في العالم... وإنما اقتصر على بياني نصيب اليهود في تاريخ الحضارة".

٢. بيان أن فلسطين لم تكن غير بيئة مختلقة لليهود. ولم تكن بلدا أصليا لهم. يقول لوبون:

"هدف الكتاب الأصلي، القائم بوجه خاص على بيان عطل اليهود من نصيب في تاريخ الحضارة، وعلى ما في اليهود من المساوئ العرقية التي قلّما يُوْصَمُ بمثلها قوم، وعلى أن اليهود شعب غير صالح، طرّاً على فلسطين، التي

لم تكن له بلدًا أساسيًا قط".

٣. وضع اليهود في مكانهم الصحيح، ووزنهم الصحيح. والتحرر من إسار الماضي في دراستهم. يقول مؤلفنا:

"... نعم إن الشعب اليهودي لم يكن غير ذي نصيب ضئيل جدًا في شَيْد ذلك البناء القديم، غير أن القرون بلغت من تجسيم شأنه الظاهر، ما لا تُبْصِرُ معه سوى أناسٍ قليلين، حتى بيْن أشد الناس ارتيابًا، تحرَّروا من سلطان الماضي، فاستطاعوا أن يضعوا بني إسرائيل في مكانهم الصحيح".

متى وضع هذا الكتاب؟

قال المترجم في مقدمته: إنْ العلامة **لوبون** أخْرَجَ كتابنا هذا، في سنة (١٨٨٩م). وإنه جزء من كتابه الضخم **"الحضارات الأولى"**.أي أنه صدر في فترة الاستعمار الأوربي لقارتي أفريقيا وآسيا.

وشهد هذا الوقت بدء الاستعمار الاستيطاني الصهيوني إلى فلسطين، بهجرة جماعة من المستوطنين الصهاينة، على يد جماعة بيلو. كانت فلسطين آنذاك جزءًا من الدولة العثمانية، وكان مجموع سكانها ٥٠٠ ألف، ٩٥% منهم من العرب. وأقيمت مستعمرة ريشون لتسيون في فلسطين. كما أقيمت تسع عشرة مستعمرة يهودية أخرى حتى عام ١٩٠٠م. منها مستعمرة جديراه. كما انعقد مؤتمر كاتوفيتز، أول مؤتمر لجمعيات أحباء صهيون في سنة ١٨٨٦م. ونشأت في روسيا حركة أحباء صهيون، في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

وفي هذا الوقت، برز تيار الحركة الصهيونية. ومن ناحية، كانت المسألة اليهودية مطروحة بقوة في أوربا، وتعني مشكلات اليهود في التكيف مع محيطهم الأوربي باعتبارهم أقلية دينية أو إثنية. كما كانت الدعوة إلى إقامة كيان استيطاني يهودي في فلسطين- من ناحية أخرى- تمثل حلا لهذه المسألة، وتمكن الأوربيين من التخلص من مشكلات اليهود، بحملهم إلى فلسطين. وتبلور ذلك بعد قليل في صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م.

القضايا التي يطرحها هذا الكتاب:

يتضمن الكتاب عددًا من القضايا الرئيسية التي تتكرر على صفحاته. أهمها:

١. ذم اليهود، ووصفهم بالنفاق والرياء، والجبن العميق. وبيان ما فيهم من المساوئ العرقية، التي قلّما يُوْصَمُ بمثلها قوم.

"مزاج اليهود النفسي في بضع كلمات، كما يُستنبط من أسفارهم، وُجد أنه ظل على الدوام قريبًا جدًا من حال أشد الشعوب ابتدائية. فقد كان اليهود عندًا مندفعين، غفلا سذاجًا، جفاة كالوحوش والأطفال. وكانوا مع ذلك عاطلين في كل وقت من الفتون، الذي يتجلى فيه سحر صبا الناس والشعوب. واليهود الهمج إذ وجدوا من فورهم مغمورين في سواء الحضارة الآسيوية المسنة، الناعمة المفسدة، أضحوا ذوي معايب مع بقائهم جاهلين. واليهود أضاعوا خلال البادية، من غير أن ينالوا شيئًا من النمو الذهني، الذي هو تراث القرون".

"وبقيَ بنو إسرائيل، حتى في عهد ملوكهم، بَدَويينَ أفاقين، مفاجئين مُغِيْرين، سفاكين مولعين بقطاعهم، مندفعين في الخصام الوحشي. فإذا ما بلغ الجهد منهم، ركنوا إلى خيال رخيص، تائهة أبصارُهم في الفضاء، كُسالى خالين من الفكر، كأنعامهم التي يحرسونها".

٢. أن اليهود لم يكن لهم كبير دور في سلم الحضارة. وإنما ضخم دورهم بعض الدارسين. وذلك في عبارات كثيرة منها:

"وكان بنو إسرائيل زرّاعًا ماهرين. وبنو إسرائيل لم يحذقوا شيئًا غير هذا. وهم إذ كانوا عاطلين من أيِّ فن، ومن أيٍّ علم، ومن أية صناعة. وهمْ إذ لم يزاولوا التجارة إلا كوسطاء، وجَّهوا عنايتهم إلى حقولهم، وإلى مواشيهم".

"والذي كان بنو إسرائيل يفضلونه، بعد الذبح والتقتيل، هو "السكون تحت شجر العنب والتين".

"كان بنو إسرائيل أقلَّ مِن أمَّة، حتى زمن شاوُل. كانوا أخلاطًا من عصابات جامحة. كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة، أفاقة بدويَّة، تقوم حياتها على الغزو والفتح، والجَدْب وانتهاب القرى الصغيرة".

"ولا تجد شعبًا عطِل من الذوق الفني كما عطِل اليهود".

٣. أن العبرانيين لم يكن لهم وجود قاهر في فلسطين ولا قامت لهم فيها دولة إلا لزمن محدود. يقول لوبون:

"فالعبريون قضوا زمنًا طويلا، ليكون لهم سلطان ضئيل في فلسطين، لا أن يكونوا سادتها".

٤. أن الشعب العبراني كان- في أوهامه- مثيرًا لصراعات مع الدول الكبرى، جلبتْ عليه المحن. يقول لوبون:

"وأَوْجَبَ تفسيرُ أسفار كتبته الوطنيين والدينيين امتلاءَه أوهامًا عجيبة، وحَيَّرَتْ لهجتُه الفارغة دولة روما العظمى نفسها، فاقتصرت على احتقاره، مع أنها كانت تعلم قدرتها على سحق وكْر المتعصبين المشاغبين ذلك عند الضرورة. ولم تُعَتِّم فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج، وفساده وضوضاؤه، أن استنفدَ صبر تلك الدولة العظمى فعزمت على إبادته؛ لكيلا تسمع حديثًا عنه".

٥. أن التوراة التي بين أيدينا كتاب مصنوع، كتبه بشر على فترات متباعدة. وتجتمع فيه الأساطير والخرافات. وفي ذلك يقول لوبون:

"إن التوراة كتاب ألف في أدوار مختلفة أشد الاختلاف، وإن التوراة مملوءة بالارتباطات والاختلاطات والروايات المرتبة المصنوعة بعد قصير وقت. ويعقب شعر إشعيا الروحاني السامي في تاريخه ومكانه في العهد القديم، إشراك الأجيال القديمة، وأقاصيصها الجاهلية. ومما لا ريب فيه وجود ثغرة عدة قرون في ذلك لا تسدها وثائق التوراة".

"وفي التوراة تبصر التاريخ والأساطير والأقاصيص الخيالية والقصائد الرعائية والقطع الروائية والنبذ التعليمية والأناشيد الدينية والأغاني الحربية

والقصائد الغزالية والمجموعات الحكمية والنسبية والشرعية إلخ".

٦. أن تاريخ اليهود هو تاريخ المذابح الدموية، وضروب التقتيل التي صدرت منهم، من غير تفريق بين الرجال والنساء، والشيب والولدان. بالإضافة إلى التحريق والسلب.

٧. أن اليهود أساءوا في وصف الله، ونسبوا إليه صفات بشرية والدراسات الحديثة تصب نقدها على ما نسبه اليهود من صفات لله تعالى، وأنهم صوروا إلههم "يَهْوَه" جبارًا عبوسًا، وطاغوتا ما انفك يطالب بالقرابين والمحْرَقات والدم. ويقارن لوبون بين الله (إله المسلمين)، ويَهْوَه (إله اليهود) قائلا:

"والله في سموه وجلاله وروحه، هو خلاف يَهْوَه الضاري، الذي لم يكن بغيرته وهزال انتقامه غير أخ صغير لِمُولك، وكاموش".

ويرجع لوبون هذا الأمر إلى تأثر اليهود في ديانتهم بالأديان الوثنية التي كانت محيطة بهم، وخصوصا الأكاديين والفينيقيين، بل إنهم عبدوا آلهة الشعوب المجاورة لهم، فعبدوا البعل، والعشتاروت، وكلها ذات صفات بشرية.

منهج لوبون في الكتاب:

يقدم لوبون دراسة تاريخية تحليلية، ودراسة نصية نقدية للعهد القديم. وهو صاحب منهج عقلي متحرر، لا يؤمن بفكرة مسبقة، ولا بعقيدة دينية. ومن هذا المنطلق عالج موضوعاته، فأصاب أحيانا وأخطأ في أحيان أخرى.

وهو يتبع أسلوبا ساخرًا من أول كتابه إلى آخره. يسخر من الادعاءات والمجازفات والتطويحات والأساطير التي فاض بها العهد القديم. فلم يسلم من أن يسخر من بعض ما هو حق؛ لانغماس هذا الحق في طوفان من الباطل. فأعياه التفريق والتمييز. ولو آمن بالقرآن مرشدا لكان له هاديا وفرقانا بين الحق والباطل. يقول الله تعالى: (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) [النمل: ٧٦].

من شهادات لوبون المنصفة للعرب:

قال لوبون في كتابه هذا:

"والإسلام- بعد كل شيء- هو الدين الوحيد الوثيق التوحيد، الذي جاء به الساميون، وهو الدين الوحيد الخالي من أي أثر لِوَثني، وهو الدين الذي يَرفضُ الأنصابَ رفضًا تامًّا".

أخطاء لوبون في هذا الكتاب:

وقع لوثر في بعض الأخطاء التي لم نغفل التعليق عليها. ولكن أبرز هذه الأخطاء ما يلي:

١. إنكار لوبون لحقيقة النبوة والوحي الإلهي. وفهمه للأنبياء على أنهم مجرد: **"أناس من ذوي النفوس العالية، تقمَّصَ فيهم المثلُ الأعلى لإحدى الأمم وأحد الأدوار تقمصًا غيرَ شعوري".**

٢. اعتقاده بأن الدين إفراز اجتماعي، وصناعة بشرية، وانعكاس لثقافة الشعوب التي أنشأته. يقول: **"إن الديانات لا تُعَدُّ- إذ ذاك- من صُنْع رجلٍ واحد، بل تُعَدُّ وليدة ألوفِ الرجال، بل تُعَدُّ نسيجَ أفكار أحد الشعوب واحتياجه".**

٣. زعمه بأن الإسلام اضطر إلى التحول العميق والتغير ليناسب الأمم المختلفة التي دخلته. يقول: **"إن الهندوس والصينيين والترك، مثلا، إذا أمكنهم أن يعتنقوا دينًا ذا اسم واحد كالإسلام، فإن هذا الدين بانتقاله من شعب إلى آخر، يعاني من التحول العميق، مثل ما تُعانيه الفنون واللغة والنظم؛ وذلك ليناسب مشاعر الأمم التي انتحلته".**

٤. اعتقاده بأن الإسلام أخذ عن اليهودية والنصرانية. يقول: **"... فيُرَى في النصرانية والإسلام ما يرتبطان به، من خلال الدين اليهودي، في الأجيال البعيدة، حيث نشأت الآلهة الآسيوية".**

٥. قوله بأن قصة الخلق في سبعة أيام، وبآدم وحواء، وبالجنة، وبالطوفان، وسفينة نوح. هو نظام كِلداني الكوني. والصواب أنه نظام إلهي، أخبرت به

الرسل، من أولهم إلى آخرهم.

٦. ردّد الكاتب بأن أصل الفلسطينيين أوربي يوناني، كما هو شائع. وإنما أصلهم الحقيقي عربي، من سكان الجزيرة العربية، وبالتحديد سكنوا هضبة نجد قبل الميلاد. بل إنها نظرية ذات غرض سياسي، تهدف إلى قطع الجذور التاريخية للفلسطينيين الحاليين، عبر فصلهم عن أجدادهم القدماء.

لماذا إخراج هذا الكتاب الآن؟

قال زعيتر في مقدمته:

" ولعلّ القرّاء يَجدون في هذا الكتاب، ما يُدْحَض به زَعْمُ اليهود الزائف القائل: إن فلسطين حق تاريخي لهم- والمشتملُ على أعظم دَجَلٍ بشري، وأفظع تضليل سياسي".

عملي في هذا الكتاب:

١. تصويب الأخطاء التي وقع فيها الكاتب.
٢. توثيق نصوص الكتاب المقدس.
٣. ضبط الألفاظ المشكلة، والتعريف بالألفاظ الغريبة.
٤. التعريف بأهم الأعلام والمدن والأحداث التاريخية التي ذكرها الكاتب.
٥. التعليق بما يلزم على مادة الكتاب تعليقًا موجزًا. ومناقشة أهم القضايا التي تحتاج إلى نقاش.
٦. التقديم بدراسة عن الكاتب والكتاب، والمترجم.
٧. وضعتُ فهرسًا للمراجع التي رجعتُ إليها.
٨. صدَّرت الكتاب بتقدمة، ألقيت فيها مزيدًا من الأضواء على هذا الكتاب، وظروف تأليفه، وعلى كاتبه، ومنهجه، ودوافعه.

كلمة عن المترجم:

المترجم هو عادل زعيتر، رائد المترجمين العرب في القرن العشرين. ولد في نابلس الفلسطينية سنة ١٨٩٧م. وتوفي بها سنة ١٩٥٧م. ترجم كثيرًا من الأعمال الفكرية عن الفرنسية لكبار مفكري الغرب وفلاسفته، مثل: جوستاف لوبون، وفولتير، وجان جاك روسو، ومونتسكيو، وإميل دورمنغم، وإميل لودفيغ.

تميزت اختيارات زعيتر المترجمة، كما تميزت ترجمته لها، فهو متمكن من اللغتين: اللغة التي يترجم منها. واللغة الفرنسية التي يترجم إليها. قدير في العربية، راسخ في علمه، له رؤية فكرية، وحس وطني.

ومن أهم من ترجم لهم كاتبنا جوستاف لوبون. حيث ترجم له أكثر من عشرة كتب. منها: حضارة العرب، وحضارة الهند، وروح الجماعات، وروح التربية.

عاش عادل زعيتر النكبة، وهي احتلال العصابات اليهودية لفلسطين سنة ١٩٤٨م، وقيام كيانهم الغاصب على الأرض العربية الإسلامية. فكان جهاده جهاد القلم، يمتطي الكلمات، ويطلق المداد على أعداء الله ورسوله، وأعداء البشرية.

وأملي بإعادة إخراج كتابه هذا، أن أكون وفيتُ له بعض حقه علينا. فقد بذل حياته لنصرة الحق، ولخدمة أمته. وسخر كل ما يملك لرسالته. والله أسأل أن يجمعنا به في جنة الخلد، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا. والحمد لله،،،

دكتور محمود النجيري

مقدمة المترجم

كان الفيلسوف العلامة غوستاف لوبون قد وضع كتابه الجليل "حضارة العرب"، في سنة (١٨٨٤م). وَوَضَعَ كتابه الجليل الآخر: "حضارات الهند"، في سنة (١٨٨٧م). ونقلنا هذين السِّفرين إلى العربية، فأصبحت ترجمتهما لدى القراء.

ومما حدث في سنة (١٨٨٩م)، أنْ أخْرَجَ العلامة لوبون كتابًا ضخمًا ثالثًا، سمَّاه: "الحضارات الأولى". ولم يكن هذا السفر في درجة سابقيه أهمية، وكنا سننقله إلى العربية، مع ذلك، لو لم يكن معظمُه خاصًّا بقدماء المصريين، والكلدانيين، والآشوريين. فقد قلبَتْ أعمالُ الحفر في مصر والعراق معارفنا في حضارات تلك الأمم رأسًا على عقب، فأصبحَ ما في كتاب "الحضارات الأولى" من المعارف عنها، محتاجًا إلى إعادة نظر، وتجديد تأليف؛ كي يتساوى هو وما انتهى إلينا من حضارات تلك الأمم بعد وضْعه.

بيْد أن كتاب "الحضارات الأولى" ذلك، يشتمل على جزء صغير- بالغ الخطورة- خاصٍ باليهود. ففي هذا الجزء، تحرَّرَ العلامة لوبون من نير التقاليد الموروثة في الغرب، كما تحرَّرَ في غيره من كتبه، فانتهى إلى نتائجَ مهمةٍ إلى الغاية.

انتهى إلى أنه: "لم يكن لليهود فنون، ولا علوم، ولا صناعة، ولا أيُّ شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة- مهما صَغُرت- في شَيْد المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبْه المتوحشة، التي

ليس لها تاريخ".

انتهى إلى أن: "قدماءَ اليهود لم يجاوزوا أطوار الحضارة السُّفلى، التي لا تكاد تُمَيَّزُ من طور الوحشيَّة. وعندما خرَجَ هؤلاء البدويون، الذين لا أثرَ للثقافة فيهم، من باديتهم ليستقروا بفلسطين، وجدوا أنفسهم أمام أممٍ قوية، متمدنة منذ زمن طويل. فكان أمرُهم كأمر جميع العروق الدنيا، التي تكون في أحوالٍ مماثلة، فلمْ يَقتبسوا من تلك الأمم العليا، سوى أخسِّ ما في حضارتها. أيْ لمْ يَقتبسوا غير عيوبها، وعاداتها الضارية، ودعارتها، وخرافاتها".

انتهى إلى أن: "تاريخ اليهود الكئيب، لم يكن غيرَ قصة لضروب المنكرات. فمن حديث الأسارى الذين كانوا يُوشَرُونَ بالمنشار أحياءً، أو الذين كانوا يُشوونَ في الأفران، فإلى حديث الملكات اللاتي كنَّ يُطرَحْنَ لتأكلهنَّ الكلاب، فإلى حديث سكان المدن، الذين كانوا يُذبحون من غير تفريق بين الرجال والنساء، والشيب والولدان".

انتهى إلى أن: "تأثير اليهود في تاريخ الحضارة صفر.... وأن اليهود لم يستحقوا بأي وجهٍ، أن يُعَدُّوا من الأمم المتمدنة".

انتهى إلى أن: "اليهود قد ظلوا- حتى في عهد ملوكهم: بدويين أفّاقين، مُفاجئين مُغيرين، سفاكين مولعين بقطاعهم، مندفعين في الخصام الوحْشي. فإذا ما بَلغ الجهْد منهم، ركَنوا إلى خيالٍ رخيْصٍ، تائهة أبصارُهم في الفضاء، كسالى خالين من الفكر، كأنعامهم التي يحرُسونها".

انتهى إلى أن: "فلسطين، أو أرض الميعاد، لم تكن غيرَ بيئة مختلقة لليهود. فالبادية كانت وطنهم الحقيقي".

انتهى إلى أنك: "لا تَجِدُ شعبًا عَطلَ من الذوق الفني، كما عَطلَ اليهود.... فهيكلهم المشهور (هيكل سليمان)، أقيم على الطراز الآشوري، مِن قِبل بنَّائين مِن الأجانب... ولم تكن قصورُ هذا الملك (سليمان)، غيرَ نسخ دنيئة عن القصور المصرية، أو الآشورية".

انتهى إلى أنه: "لا أثر للرحمة في وحشية اليهود... فكان الذبح المُنظم

يعقب كلَّ فتح، مهما قلّ. وكان الأهالي الأصليون يُوقفون، فيُحكمُ عليهم بالقتل دفعة واحدة. فيُبادون باسم يَهْوَه، مِن غير نظر إلى الجنس، ولا إلى السن. وكان التحريق والسلب يلازمان سفكَ الدماء".

ويُلخّصُ العلامة لوبون مزاجَ اليهود النفسي فيقول: "إنه ظلَّ قريبًا جدًا من حال أشد الوحوش ابتدائية على الدوام، فقد كان اليهود عُنُدًا مندفعين، غُفّلا سُذجًا، جُفاة كالوحوش والأطفال. وكانوا عاطلين، مع ذلك، من الفُتون، الذي يتجلى فيه سِحْر صِبا الناس والشعوب. واليهود الهَمَج، إذا وُجدوا من فورهم، مغمورين في سواء الحضارة الآسيوية المُسِنة الناعمة المفسدة، أضحوا ذوي معايب مع بقائهم جاهلين. واليهود أضاعوا خِلال البادية، مِن غير أن ينالوا شيئًا من النمو الذهني، الذي هو تراث القرون".

"ويُعربُ حزقيالُ عن ذلك الرأي في سفره، حين يَذكُرُ ظهورَ الشعب اليهودي الحقير، وأوائله الهزيلة، وما عَقبَ استقرارَه بفلسطين من الحُمَيَّا، فيقول مخاطبًا تلك الأمة العاقة، قائلا باسم يَهْوَه:

"وفي جميع أرجاسك وفواحشِك، لم تذكري أيامَ صباك... وإذ كنتِ لم تشبَعِي، زَنيتِ مع بني آشور، ولم تشبَعي... فلذلك أقضِي عليك بما يُقضَى على الفاسقات وسافكات الدماء، وأجعلك قتيلَ حَنَقٍ وغَيْرَة"[1].

واليهود مع عطلهم من الفن والصناعة عَطَلا تامًا، يَجدُ لهم لوبون آدابًا غنية. ولوبون يقول مع ذلك: "وليست تلك الظاهرة خاصة ببني إسرائيل فقط، فهي تُشاهد لدى جميع الأمم السامية، ولاسيما العرب، الذين كانوا قبل الإسلام ذوي شعر بعيد الصيت حقًا. على أن الشعر، مع الموسيقى، فنُّ جميع الأمم الفطرية. والشعر، مع بُعده من التقدم، موازيًا لتقدم الحضارة، تَجِدُهُ يَضيق

---

[1] حزقيال: يعتقد العديد من الباحثين والمؤرخين أن حزقيال هو نفسه ذو الكفل لدى اليهود. ويعد حزقيال نبيًا من أنبياء اليهود. وقد ورد ذكره في سفر نبوة حزقيال في العهد القديم. ووفقا لبعض روايات اليهود، أنه قد قدم للعراق خلال السبي البابلي. ويذكر أن له قبراً في منطقة تسمّى الكفل بين الحِلة (بابل) والنجف، كان يزوره اليهود والمسلمون، حيث يعتقد اليهود أن هذا القبر هو قبر النبي حزقيال، ويعتقد المسلمون أن هذا القبر هو قبر النبي ذي الكفل. وربما كان هذا أحد أسباب الاعتقاد أن حزقيال هو نفسه ذو الكفل. ولا يوجد دليل قاطع على هذا (ويكيبيديا- الموسوعة الحرة).

أهمية وتأثيرًا، كلما ارتقت الأمم. فقد اقتضت الحضارة قرونًا طويلة لاختراع الآلة البخارية، واكتشاف سنن الجاذبية، مع إمكان ظهور قصائد كالأوذيسة والإلياذة وأغاني أوسيان في أدوار الجاهلية".

وعند لوبون: أنَّ الشريعة اليهوديةَ بأسرها، ليست إلا وجهًا بسيطًا للنظام الكلداني. وأنَّ معتقدات اليهود، هي من أساطير البابليين المعقدة، التي لم ينتحلها عالَم الغرب المتمدن، إلا بعد أن تحوَّلتْ، بمرورها من خلال روح الساميين البسيطة. وقد تطورتْ هذه المعتقدات في الغرب تطورًا، ابتعدت به عن أصولها، فأخذت شكلا لا يَكاد يَمُتُ إلى السامية بصِلة. وفي ذلك يقول لوبون:

"فما كان لمبادئ كهذه، أن يتمثلها ذلك الشعب اليهودي الصغير المتعصب، الأناني الصلف، المغرور المفترس".

وبسبب ذلك يقول لوبون:

"ولمَّا يَحِلُ الوقتُ الذي ترسم فيه يَدُ الإنصاف تكوينَ تلك المعتقدات الكبرى. ولا يكاد فجْرُ ذلك الزمن يلوح، ولا يزال المؤمنون والملحدون، يُقيمون بدوائر من التصديق أو الجحود على غير برهان، ولا يزال الرجل المعاصر يئنُّ تحت عبء الوراثة الثقيل، ولا تزال متماسكة المؤثرات الإرثية التي حصرت نفوس الغرب في قوالب منذ نحو ألفي سنة، وإن أخذت هذه المؤثرات تنحلُّ. فقد ترك الماضي في نفوسنا آثارًا، يجب أن تمرّ عليها أمواجٌ غير مرّة حتى تمحوها".

"... نعم إن الشعب اليهودي لم يكن غير ذي نصيب ضئيل جدًا في شَيْد ذلك البناء القديم، غير أن القرون بلغت من تجسيم شأنه الظاهر، ما لا تُبْصِرُ معه سوى أناسٍ قليلين، حتى بيْن أشد الناس ارتيابًا، تحرَّروا من سلطان الماضي، فاستطاعوا أن يضعوا بني إسرائيل في مكانهم الصحيح".

"... ومع إمكان جهل الرجل المثقف العصري لتاريخ الحضارات العظيمة، التي أينعت فوق أرض الهند جهلا تامًا، تجده لا يجرؤ على الاعتراف بأنه يجهل أعمال شمشون، أو مغامرات يونان، الذي التقمه الحوت".

ويبحث لوبون في وقائع اليهود، فيجدَها هزيلة. لُحمَتُها المشاغبات، وسَداها

ضروب التوحش والمنكرات، وفي ذلك يقول:

"وحوادث تافهة كتلك، لا يُعْنَى بها التاريخ. وإذا ما عُنِي بها التاريخ، فلأسباب مستقلة عن أهميتها. ومن ذلك، أنّ حصار عصابة من البرابرة لمدينة تِرْوادة[2] الصغيرة، واستيلاءَهم عليها، قبل الميلاد باثني عشر قرنًا، مما غدا حادثًا ذا بال في تاريخ العالم؛ لأن أوميرُس[3] تُغنّى به. لا من أجلِ نتائجه".

"وما أتى به مؤرخو اليهود من تدوين لتلك الحوادث عقب وقوعها، مع تجسيم عظيم، هو دون ما صنعته الكنيسة النصرانية بعد ذلك".

"ومن يقرأ سفر صموئيل، وسفر القضاة، بشيء من روح النقد، يُبصر دَوْر العَنَت الذي جاوزه بنو إسرائيل في استقرارهم بفلسطين. غير أن هذه الأقاصيص نفسها، إذا ما نُظر إليها من خلال أبخرة الحماسة الدينية، ألقتْ في النفوس وَهْمًا قائلا: إن ذلك الفتح ساطعٌ معجز".

"وظلت أوربا النصرانية زمنًا طويلا تقرأ كتب مؤرخي اليهود بالروح التي أرادها هؤلاء المؤرخون. وما ودّه أولئك المؤرخون مِن تمْويْه على معاصريهم، ارتضاه أمثال: أوغسْتِن، وبسْكال، وشاتو بريان، أكثر من ارتضاء ذلك الشعب الجاهل المتعصب، الذي حاولوا إقناعه".

ويستولى الرومان على فلسطين، "وتُحَيِّر لهجةُ الشعب اليهودي الفارغة دولة روما العظمى نفسها. وتقتصر على احتقاره، مع أنها كانت تعلم قدرتها على سحق وَكْر المتعصبين المشاغبين ذلك عند الضرورة. ولم تغتّم فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج، وفسادُه وضوضاؤه، أن استنفدت صبْر تلك الدولة العظمى، فعزمتْ على إبادته؛ لكيلا تسمع حديثًا عنه، ففي سنة (٧٠) من

---

[2] تِرْوادة: تقع مدينة طروادة في آسيا الصغرى، وهي مدينة بحرية غنية. وحرب طروادة، كانت بين الإغريق- الذين حاصروا مدينة طروادة- وأهلها، ودامت عشر سنين. وتعد واحدةً من أشهر الحروب في التاريخ؛ وذلك لخلودها في ملحمتي هوميروس: الإلياذة، والأوديسة، اللتين تحدثتا عن بعض أحداث حرب طروادة (ويكيبديا- الموسوعة الحرة).

[3] أوميرُس: هوميروس (Homer)، شاعر إغريقي شهير. وهو كاتب الملحمتين: الإلياذة، والأوديسا. قام بتخليد حرب طروادة شعرًا. وهي الملحمة التي يعتقد حدوثها سنة ١٢٥٠ ق.م.

الميلاد، استولى تيطس[4] على أورشليم، وجعلها طُعْمَة للنيران، وبُدِئ بتشتيت شمل اليهود".

وفي هذا الكتاب، يذهب لوبون إلى أن بني إسرائيل كانوا من الساميين. أي من العِرْق الذي كان ينتسب إليه الآشوريون والعرب. ولكن بني إسرائيل قد اكتسبوا بانفصالهم من ذلك العِرْق، تلك المساوئ التي وجدها لوبون فيهم، فظلَّ العرب بريئين من مثلها.

ومع ذلك، يرى لوبون في كتابه "حضارة العرب"، أن تلك القرابة، تقوم على تجانس اللغات، وبعض الصفات الجثمانية، وأنَّ من الممكن أن يُجادَل في ذلك، فقد قال في ذلك السفر الجليل:

"ومهما تكن وحدة تلك الصفات التي نجادِلُ في قيمتها. ومهما تكن أهمية تلك القرابة السامية، التي لا نجزم بها، نراها ترجع- على فرض وجودها- إلى ما قبل التاريخ. وقد كانت تلك الأمم السامية على اختلاف وتباين منذ أقدم عصور التاريخ، كما دلتْ عليه الروايات".

فيكون ذهاب لوبون إلى أن بني إسرائيل والعرب من أرومة واحدة في كتاب "الحضارات الأولى"، من قبيل التجَوُّز إذَنْ.

وفي كتاب "حضارة العرب"، يقول لوبون:

"ولا جَرَمَ أن الشبَه قليلٌ بين العربي أيام حضارته، واليهودي الذي عُرف منذ قرون بالنفاق والجبن، والبخل والطمع. وأنَّ من الإهانة للعربي أن يُقاس باليهودي... وأن العربي، مع إقراره لليهودي بالقرابة، أوَّلُ من يحمَرُّ وجهُه خجلا منها".

وكيف لا يكون من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي، "وتاريخ اليهود

---

[4] تيطس: أحد أباطرة الرومان، وهو ابن فسبسيان. قاد القوات الرومانية في مقاطعة يهودا الرومانية في عام ٧٠م. استولى على القدس بعد حصار دام خمسة أشهر، اشتركت فيه إلى جانبه قوات يهودية بقيادة أجريبا الثاني. وبعد استيلائه على القدس، هدم تيطس الهيكل. وتجعله الأدبيات الصهيونية مسئولا عن شتات اليهود، مع أن عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين قبل هدم الهيكل كان يصل إلى نحو ثلاثة أضعاف عدد الموجودين في فلسطين (موسوعة اليهود واليهودية).

الكئيب، لم يكن غير قصة لضروب المنكرات... وأنه لا أثر للرحمة في وحشية اليهود". مع أن "الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم"- كما قال لوبون.

وكيف لا يكون من الإهانة للعربي أن يُقاس باليهودي، ومبدأ اليهود- كما في سفر يشوع:

"أهْلِكوا جميعَ ما في المدينة، مِن رَجُلٍ وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير- بحد السيف... وأحْرقوا المدينة، وجميعَ ما فيها بالنار"[٥].

ومبدأ العرب- كما جاء في وصية أبي بكر الصديق:

"لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا. ولا تقتلوا طفلا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة. ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه. ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا- إلا لمأكلة، وسوف تمُرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدَعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له"[٦].

وكيف لا يكون من الإهانة للعربي أن يُقاس باليهودي "وقدماء اليهود لم يُجاوزوا أطوار الحضارة السُّفلى، التي لا تكاد تُمَيَّز من طوْر الوحشية.. وتأثير اليهود في الحضارة صفر... وإن اليهود لم يستحقوا- بأي وجه- أن يُعَدُّوا من الأمم المتمدنة". مع أن "العرب مَدَّنوا أوربا، ثقافة وأخلاقًا"- كما قال لوبون.

ولوبون قد تَمَنَّى أن يكون العرب قد استولوا على العالم، ومنه أوربا؛ لما كان فيهم من نبيل الطبائع، وكريم السجايا.

ولوبون هو القائل:

"إنه كان يصيب أوربا النصرانية، باستيلاء العرب عليها، مثلُ ما أصاب إسبانيا من التقدم والارتقاء، والحضارة الزاهرة الرفيعة، تحت راية النبي العربي. وكان لا يَحدث في أوربا، التي تكون قد هُذبت، ما حدث فيها من

---

[٥] يشوع ٢١، ٢٤: ٦.
[٦] أخرجه البيهقي في السنن، كتاب السير، باب من اختار الكف عن القطع والتحريق (١٧٩٠٤).

الكبائر. كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتلمي[٧]، ومظالم محاكم التفتيش[٨]، وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع، التي ضَرَّجتْ أوربا بالدماء عدة قرون".

وكيف لا يكون من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي، "وأنت لا تجد شعبًا عَطِلَ من الذوق الفني كما عطل اليهود". مع أن "الأمَّة العربية قد رَغِبَتْ في تحقيق خيالاتها، فأبدَعَتْ تلك القصور الساحرة، التي يُخيِّل إلى الناظر أنها مؤلفة من تخاريم رخامية، مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة. ولم يكن لأمة مثل تلك العجائب، ولن يكون... فلا يَطمَعَنَّ أحَدٌ في قيام مثلها، في الدور الحاضر المادي الفاتر، الذي دَخل البشر فيه"- كما قال لوبون.

****

[٧] ملحمة سان بارتلمي: هي مذبحة، أمر بها شارل التاسع وكاترينا دوميديسيس. قتلت كاترينا خمسة الاف من زعماء البروتستانت في باريس، ظنت أنهم يتآمرون بها وبالملك. ولم يكد الخبر ينتشر في باريس، حتى شاع أنه شُرع في قتل البروتستانت، فانقض أشراف الكاثوليك، والحرس الملكي، والنبلاء والجمهور على البروتستانت، وقتلوا عشرة الاف نسمة في مختلف المدن. وقد باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه المجزرة. وبدا السرور على البابا غريغوار الثالث عشر. وقد أكد ذلك بضرب أوسمة خاصة؛ تخليدًا لذكرى هذه المذبحة!! ورسمت على هذه الأوسمة صورة غريغوار، وبجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق البروتستانت (www.ebnmaryam.com).

[٨] محاكم التفتيش: بدأت هذه المحاكم في القرن الثالث عشر؛ لإرهاب (الهراطقة) الخارجين عن الكنيسة. لكن أشنع فصولها بدأ بسقوط غرناطة، ووقوع المسلمين فريسة لعدو خائن، نقض كل العهود والمواثيق التي وقعت في عام ١٤٩١م، بين أبى عبد الله الصغير، وفرديناند. واشترط المسلمون أن يوافق عليها البابا ويقسم على احترامها. ولكن هيهات! فهؤلاء لا عهد لهم، ولا ذمة. ومما جاء في المعاهدة من وعود: "تأمين الصغير والكبير، في النفس والأهل والمال. ترك الناس في أماكنهم ودورهم. وإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يُحكم على أحد منهم إلا بشريعته. وأن تبقى المساجد كما كانت، والأوقاف كما هي. وألا يدخل نصراني دار مسلم، ولا يغصبوا أحدًا .... وألا يؤخذ أحد بذنب غيره، وألا يكره من أسلم على الرجوع للمسيحية. ولا ينظر نصراني على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير في بلاد المسيحيين أمنا في نفسه وماله ... ولا يمنع مؤذن، ولا مصلي، ولا صائم، ولا غيره من أمور دينه". ومع قسم فرديناند وإيزابيلا على كل هذا، إلا أن الأيمان والعهود، لم تكن عند ملكي النصارى هذين سوى ستار للغدر والخيانة. وقد نقضت كل هذه الشروط. ولم يتردد المؤرخ الغربي (بروسكوت) أن يصفها بأنها أفضل مادة للغدر الأسباني. فقد نقض الأسبان هذه المعاهدة بندًا بندًا: منعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء المسلمين منها، وحرق ما بقي منهم. وزاد الكردينال (أكزيمينيس) على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطيع من كتب المسلمين، وفيها من العلوم ما لا يقدر بثمن، بل هي خلاصة ما تبقى من الفكر الإنساني- وأحرقها. يقول غوستاف لوبون متحسرًا على فعلة ذلك الجلال أكزيمينيس: "ظن رئيس الأساقفة أكزيمينيس، أنه بحرقه مؤخرًا، ما قدر على جمعه من كتب أعدائه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محا ذكرهم من الأندلس إلى الأبد. وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد اسبانية، يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد" (ebnmaryam.com).

تلك هي حال الشعب اليهودي، الذي كان له بعض السلطان في فلسطين حينًا من الزمن، فأجْلاه الرومان عنها، فتفرَّق في الأرض. فلم يقتبس من الأمم التي عاش بينها غير أخسِّ عيوبها، شأن أجداده. كما يَثبُتُ ذلك في سلوكه الوحشي الأخير في فلسطين[9].

ولا نبحث هنا في العوامل التي حفزت إنجلترا إلى شدِّ أزره، وتوطيد دعائمه في بلد عربي، لم يكن ملكًا لليهود، ولا في المظالم التي اقترفها الإنجليز وغيرهم من الأوربيين والأمريكيين مدة ثلاثين سنة[10]. ولا يزالون يقترفونها؛ إمعانًا في اضطهاد العرب؛ وتثبيتًا لأقدام أجْلاف اليهود في سوريا الجنوبية "فلسطين"، ممثلين في أهلها العرب مأساة أندلسية أخرى؛ لأن ذلك يُخرجني من نطاق الكتاب. ولعلَّ القرَّاء يَجدون في هذا الكتاب، ما يُدْحَض به زَعْمُ اليهود الزائف القائل: إن فلسطين حق تاريخي لهم. والمشتملُ على أعظم دَجَلٍ بشريٍ، وأفظع تضليل سياسي.

وهنا، نذكُرُ أنَّ في الكتاب أمورًا لا تلائم بعض المعتقدات. ولا نوافق لوبون عليها[11]، ولكنَّ هذه الأمور ليست من صميم الموضوع. وهي على العموم، مِن قَبيل الاستطراد، البعيد مِن هدف الكتاب الأصلي، القائم بوجه خاص على بيان عطل اليهود من نصيب في تاريخ الحضارة، وعلى ما في اليهود من المساوئ العرقية التي قلَّما يُوْصَمُ بمثلها قوم، وعلى أن اليهود شعب غير صالح، طرًا على فلسطين، التي لم تكن له بلدًا أساسيًا قط.

"نابلس"

عادل زعيتر

[9] كتب هذا الكلام بعد حوالي ثلاثين سنة من استيلاء اليهود على فلسطين، وإقامة دولة إسرائيل. ولا يزال يتردد بعد ستين سنة من قيام هذه الدولة الوحشية.

[10] الآن مدة ستين سنة.

[11] هذا احتراز من المترجم عما أدى إليه منهج لوبون النقدي المتحرر من رفض لكل ما أتى من طريق بني إسرائيل، نظرًا لاختلاط الحق فيه بالباطل. أما نحن فلدينا الحق الذي نستطيع أن نميز به بين الصواب والخطأ. وهو ما أوحاه الله إلى خاتم أنبيائه ورسله، محمد بن عبد الله ﷺ.

الفصل الأول

البيئة والعرق والتاريخ

١ـ نصيب اليهود في تاريخ الحضارة

لم يكن لليهود فنون، ولا علوم، ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة- مهما صَغُرَتْ- في شَيْد المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة، التي ليس لها تاريخ. وإذا ما صارت لليهود مدن في نهاية الأمر، فلِمَا أدَّت إليه أحوالُ العيش بين جيرانٍ بلغوا درجة رفيعة من التطور. بَيْد أن اليهود كانوا غايةً في العجز عن أن يُقيموا بأنفسهم مدنَهم ومعابدَهم وقصورَهم، فاضطروا في إبّان سلطانهم، أي في عهد سليمان، إلى الاستعانة بالخارج، فجَلبوا منه- لذلك الغرض- بنّائين وعمالا ومتفننين، لم يكن بين بني إسرائيل قِرْن[١٢] لهم.

وعلى ما كان من هُزال تلك القبيلة السامية، الصغيرة الكئيبة في نشوئها العقلي، مَثّلتْ بالديانات التي صدرت عن معتقداتها، دورًا بلغ من الأهمية في تاريخ العالم، ما يتعذرُ معه عدمُ الاكتراث لها في تاريخ للحضارات[١٣]. ويتألف جزءٌ أساسي في التربية، من دراسة فتنها الأهلية، وتُرَّهات أنبيائها[١٤]، وسلاسل أنساب ملوكها الغامضة. ومع إمكان جهْل الرجل المثقف العصري، لتاريخ الحضارات العظيمة، التي أيْنَعَتْ فوق أرض الهند جهْلا تامًا، تجده لا يجرؤ

---

[١٢] قرن: القِرْنُ مثلك في السن، تقول: هو على قرني، أي على سني. والقَرْنُ في الناس: أهل زمان واحد. والمراد الشبيه والنظير. قال الشاعر: إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم --- وخلفت في قرن فأنت غريب [مختار الصحاح، ص ٥٦٠].

[١٣] هذا الكتاب هو جزء من كتاب ضخم للكاتب عن تاريخ الحضارات.

[١٤] تُرَّهات أنبيائها: التُرَّهَاتُ هي الطرق الصغار غير الجادة، تتشعب عنها. الواحدة: تُرَّهَة. فارسي معرب، ثم استعير في الباطل [مختار الصحاح، ص ٨٣].

على الاعتراف بأنه يجهل أعمال شمشون[15]، أو مغامرات يونان (يونس)، الذي التقمه الحوت[16].

وسيبدو، لا ريب، ذلك الشأن الكبير، الذي مَثّله الفكر اليهودي في تاريخ أوربا المتمدنة منذ نحو عشرين قرنًا، من المسائل الجالبة للنظر لدى كُتّاب المستقبل. فإذا ما انقضت بضعة آلاف من السنين، ولحِقتْ حضارتنا بالحضارات السابقة في لُجة الماضي، وغدتْ فنوننا وآدابنا ومعتقداتنا من الذكريات، وصار يُبْحث في أمورنا كما نبحث اليوم في أمور المصريين والآشوريين، أي بما لا تُدْرَكُ بغيره حوادثُ التاريخ من الهدوء الفلسفي ونُفسّر- عَدَّ المؤرخُ- لا شك- من الحوادث التي تستوقف النظر، خضوعُ أمْدَن الأمم في قرون طويلة، لديانة[17] مشتقة من معتقدات قبيلة بَدْو مُبْهَمَة، وتَذابُحَ شعوب قوية- في جميع ميادين الغرب والشرق- من أجل هذه المعتقدات، وقيام دول عظيمة، وهَدْم دول عظيمة أخرى، في سبيل المعتقدات المذكورة. وهذا إلى قلة عدد حوادث التاريخ الغريبة، التي تعرض على تأملات مفكري المستقبل، كذلك الحادث.

---

[15] شمشون: من شخصيات العهد القديم، هو بطل شعبي من إسرائيل القديمة، اشتهر بقوته الهائلة. ووَرَدَ ذكرُه في سفر القضاة، في الإصحاحات ١٣-١٦، وفي الرسالة إلى العبرانيين، من العهد الجديد، في الإصحاح ١١، وقد شاعت قصصه في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وحسبما ورد في الكتاب المقدس فإن والدة شمشون أخذت- قبل مولده- عهدًا على نفسها، أن تجعله نذيرًا، وتقوم على تربيته تربية دينية؛ فمنعته شرب الخمر، وأكل الطعام غير الطاهر، ومنعته من حلاقة شعره. وحدث أن وقع شمشون في حب امرأة أجبرتْ على الزواج بغيره، لذلك أشعل النار في حقول أهلها، وحينما سلمه العبرانيون لينال جزاءه، استطاع أن يتخلص من قيوده، وقتل ألفا من الرجال بفك حمار. وقد حاول الناس فيما بعد القبض عليه في غزة، وذلك بإغلاق مداخل المدينة، ولكنه حطم الأبواب، وحملها معه بعيدًا. ثم جاء سقوط شمشون، بعد أن وقع في حب امرأة أخرى تسمى دليلة. عرف أعداؤه حبه لها، فطلبوا منها معرفة سر قوته، حتى عرفت أنها تكمن في شَعره. فتمكنت من حلاقة شعر شمشون أثناء نومه بطلب منهم، ثم أخذته بسهولة وفقأت عينيه، وأخِذ للعمل خادمًا خلال احتفال للإله الوثني داجون. وبينما كان المعبد ممتلئًا بالناس، أدخِل شمشون لكي يتسلى به الحشد، ولكن شعره كان قد نما. وبعد صلاة إلى الله، عادت له قوته مرة أخرى، فقبض على أحد الأعمدة التي تسند السقف، وهدم المبنى، فقتل نفسه، وقتل الآلاف من أعدائه (ويكيبيديا- الموسوعة الحرة).

[16] يونان (يونس): بعث الله رسوله يونس ﷺ إلى أهل "نينوى"- من أرض الموصل. ويُسمّى يونس- في الدينين اليهودي والمسيحي- باسم النبي "يونان".

[17] يقصد الديانة النصرانية.

ومن السهل أن نُبصِر، أن منكري المستقبل أولئك، سيكونون على شيء من الارتياب. فبما أنهم يكونون طليقين من الأحكام المقرَّرَة المهيْمِنة علينا، وبما أنهم يكونون أكثر اطلاعًا منا على الروابط التي تربط الماضي بالحاضر، وعلى السُّنن العامة لتطور الأمور، فإنهم يحكمون في ما يساورنا بعيون تختلف عن عيوننا- لا ريب. فتبدو لهم المسائل، التي نراها معقدة في الوقت الحاضر، بسيطة إلى الغاية؛ لِمَا يَعْلمون مِن رَدِّها إلى العناصر التي تتألف منها.

ومما لا مِراء فيه: **أن الديانات لا تُعَدُّ- إذ ذاك- من صُنْع رجلٍ واحد، بل تُعَدُّ وليدة ألوفِ الرجال، بل تُعَدُّ نسيجَ أفكار أحد الشعوب واحتياجه**[18]. ومما لا مِراء فيه، أن مؤسسي الديانات، لا يُعَدُّون- إذ ذاك- غير **أناس من ذوي النفوس العالية، تقمَّصَ فيهم المثلُ الأعلى لإحدى الأمم وأحد الأدوار تقمصًا غيرَ شعوري**[19]، فيُرَى في النصرانية والإسلام ما يرتبطان به، من خلال الدين اليهودي، في الأجيال البعيدة، حيث نشأت الآلهة الآسيوية[20]. ولا يجهل آنئذ أن الأديان تطورت في غضون القرون على الدوام، مع احتفاظها باسم واحد. وأنّ

---

[18] يصدق هذا على الأديان الوضعية، كالهندوسية والبوذية. كما يصدق على الأديان التي تعرضت للتحريف على أيدي رجالها، الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلا. أما الإسلام. فهو محفوظ كتابه، بنصه الموحى به. ومحفوظ كلام رسوله وأوامره، ومنقول تعاليمه نقلا متواترًا، من جيل إلى جيل. وغير مسموح بتبديله، أو بتغييره. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩].

[19] هذه دعوى من الكاتب نرفضها. وهي إنكار لحقيقة النبوة. التي هي وحي من الله إلى رسوله، بكلام الله المباشر إليه، أو بإرسال الملاك جبريل إليه بكلام الله أو بأوامره. ودعوى الكاتب رددها غيره من مفكري الغرب، مثل توماس كارلايل في كتابه الأبطال.

[20] الكاتب يضع نظرية، ويحاول البرهنة عليها، فيخلط بين أمور ليست واحدة، ويصدر أحكامًا غير صحيحة. فهو يرجع المشترك بين الإسلام والنصرانية واليهودية إلى ما سبق أن ادعاه من الأصل البشري للأديان جميعًا. والصواب أن المشترك فيها يرجع إلى مصدرها الإلهي، وما اختلفت فيه يرجع إلى التحريف البشري لما كان قبل الإسلام، أو يرجع إلى اختلاف التشريع الإلهي من رسالة لأخرى. وقبل هذه الديانات الثلاث، أوحى الله إلى أنبياء ورسل كثر، ولكن دعواتهم كانت تتعرض للتحريف من بعدهم. فيختلط البشري بالإلهي. أما الإسلام، فقد أفرز الحق من الباطل في كل ذلك. ولم يقبل شائبة وثنية. يقول الله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً) [النساء: ١٦٣]. ويقول الله ﷻ: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) [الشورى: ١٣].

من الوَهْم الخالص، أن يُعْزى- في كل وقت- إلى موجديها- في الظاهر- ما اضطُرّتْ إليه من التحولات لتلائم جديدَ الاحتياجات، وأنَّ الدين إذ كان، كالنظم والفنون، عنوانَ مشاعر إحدى الأمم، فإنه لا ينتقل من شعب إلى آخَر، من غير أن يَتغيَّر. وأن الهندوس والصينيين والترك، مثلا، إذا أمكنهم أن يعتنقوا دينًا **ذا اسم واحد كالإسلام، فإن هذا الدين بانتقاله من شعب إلى آخر، يعاني من التحول العميق، مثل ما تُعانيه الفنون واللغة والنظم؛ وذلك ليناسب مشاعر الأمم التي انتحلته**[٢١]. وفي ذلك الحين، يُنظر بتلك العين- لا ريب- إلى الزنديق المعاصر، الذي يقتصر عمله السهل في بيان النواحي الصبيانية من كل دين، وإلى المؤمن المعاصر، ذي البصيرة النيِّرَة في الموضوعات العلمية، الذي ينحني أمام الخرافات الصبيانية!

أجل، إن الإنكار سهل كالتصديق، ولكن الذي يطالَبُ به كاتب المستقبل، هو أن يفهم ويفسر على الخصوص. وستغيب، إلى الأبد، الأزمنة التي يرى المؤرخ فيها اضطراره إلى المحاكمة، وإلى الحَنَق. فهنالك، لا يكون التاريخ من صنع الأديب، بل من صنع العالم.

وسيختلف تاريخ اليهود والأديان التي صدرت عنهم، عن التاريخ الذي لا يزال مدونًا في الكتب، اختلافًا كبيرًا- لا ريب. وبيان الأمر: أن مؤسس النصرانية، كما صنعته القصة، كان أقلَّ الساميين سامية، فلم يكن من غير سبب، أنْ كُفِرَ به، وأنْ صُلِبَ[٢٢]. وأنَّ هذا المُتَهَوِّس الكبير[٢٣]، مَثَّلَ في التاريخ دورًا، كان يتعذر عليه أن يُبْصِرَه، فأوجبتْ أحوالٌ مستقلة عنه، حاملة لاسمِه، ظهورَ آمال للعالَم عندما لاحَ نجمُه، وليس في الإحسان العظيم العام، والتشاؤم

[٢١] هذه الدعوى بتطور الإسلام وتغيره من أمة لأخرى، ومن وقت لآخر. دعوى غير علمية، وبعيدة عن الحقيقة؛ لأن الإسلام واحد في عقيدته وشريعته وعباداته وكتابه منذ نزل على رسول الله محمد ﷺ. وغير مسموح بتغيير شيء مما أتى به صريحًا قطعيًا.

[٢٢] لماذا سلم الكاتب بأن عيسى عليه السلام صلب مخالفا بذلك منهجه النقدي؟! أما الإسلام، فقد زيف هذه الواقعة وأبطلها، وأهدر كل ما بناه النصارى عليها. يقول الله ﷻ في كتابه المجيد: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء: ١٥٧].

[٢٣] رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام. وحاشاه أن يكون كما رماه الكاتب.

القاتم، اللذين قام عليهما مذهبه في البَداءة، كما قام عليهما مذهب بُدَّهَةَ "بوذا"[٢٤] قبله بخمسمئة سنة[٢٥]، شيء من السامية، فما كان لمبادئ كهذه، أن يَتَمَثَّلها ذلك الشعب اليهودي الصغير، المتعصب الأناني، المغرور المفترس، وإنما نبتت هذه المبادئ على مبدأ التوحيد المحلي، الذي مالت إليه- على الدوام- رُوحُ الساميين، من أنصاف البرابرة، كاليهود والعرب[٢٦]، الفطرية الخاثرة[٢٧].

ولمّا يَحِلُّ الوقت الذي ترْسُم فيه يدُ الإنصاف تكوينَ تلك المعتقدات الكبرى، ولا يكاد فجْرُ ذلك الزمن يلوح. ولا يزال المؤمنون والملحدون يقيمون بدوائر من التصديق، أو الجحود على غير برهان. ولا يزال الرجل المعاصر يَئِنُّ تحت عِبْءِ الوراثة الثقيل، ولا تزال متماسكةً المؤثراتُ الإرثية التي حَصَرَتْ نفوسَ الغرب في قوالبَ منذ ألفي سنة. وإن أخذتْ هذه المؤثرات تنحَلُّ، فقد ترك الماضي في نفوسنا آثارًا، يجب أن تمرَّ عليها أمواج الزمان غيرَ مَرَّة، حتى تمحوها.

وعلى ما تراه من نشوء المذهب العقلي الحديث، الذي لا يكاد يتفتح فوق أرض أوربا، لم تزل أوربا نصرانية، إلى درجة لا يدركها الباحثون الواقفون

---

[٢٤] بوذا: ولد بوذا حوالي ٥٥٨ ق.م. في إقليم ساكيا (جنوب النيبال). توفيت أمّه مايا وهو في السابعة من عمره، فربّته عمّته. تزوّج في السادسة عشرة، وترك بيت الزوجية في التاسعة والعشرين؛ ليعيش اختباراتٍ روحيّة؛ ويعلن عقيدته، ومات وهو في الثمانين من عمره. لكنّ كتّاب سيرة حياته أضافوا إليها بعض الأمور الملحميّة الأسطوريّة؛ كي تكون حياته قدوة؛ ويمنحوا مؤسّس ديانتهم صفة قدسيّة إلهيّة. وتظهر هذه الملامح في الفنّ البوذيّ والعبادات والطقوس. والبوذيّة هي الديانة الوحيدة التي لا يعلن مؤسّسها أنّه إله، أو حتى رسول الله أو نبيّه، بل يعلن أنّه البوذا (الساهر أو اليقظ)، الذي يعلن طريقة لخلاص البشر. لكنّ أتباعه حوّلوا تعاليمه إلى مبادئ دينيّة، وألهوه. وديانته كالمسيحية، فيها دعوة إلى التصوف والخشونة، ونبذ الترف، والمناداة بالمحبة والتسامح، وفعل الخير (ويكيبيديا).

[٢٥] تأثرت النصرانية بالبوذية في كثير من معتقداتها، وبخاصة ما يتعلق بولادة المسيح وحياته، والأحداث التي مر بها. يعتقد البوذيون أن بوذا هو ابن الله، وهو المخلص للبشرية من مآسيها وآلامها، وأنه يتحمل عنهم جميع خطاياهم. ويعتقدون أيضًا أن تجسّد بوذا كان بواسطة حلول روح القدس على العذراء "مايا"... إلخ.

[٢٦] قصد المؤلف بالعرب هنا أعراب العرب، أو العرب في العصر الإسرائيلي، أو الجاهلي على الأكثر، كما يشهد بذلك كتابه "حضارة العرب" العظيم الخالد، الذي شهد فيه بأن العرب ضربوا بسهم كبير في الحضارة، فمدّنوا أوربا علمًا وأدبًا وأخلاقًا وتسامحًا ... إلخ. وقد نقلنا هذا الكتاب الجليل إلى العربية، فطبع للمرة الثانية سنة ١٩٤٨م. (المترجم)

[٢٧] الخاثرة: خَثَرَ اللَّبَنُ خَثْرا، وخُثُورا، وخَثَارَةً، وخُثُورَةً، وخَثَرَانا: غَلُظَ (القاموس المحيط، مج١، ص٤٩٠).

عند حَدّ الظواهر. وما يَصْدُر عن حرية الفكر من مفاجآت، يُثبت وحده، بما يوجبه من مقاومة، عمق الأسس النصرانية التي لم تنفك مجتمعاتنا تقوم عليها.

نعم، إن الشعب اليهودي لم يكن غير ذي نصيب ضئيل جدًا في شَيْد ذلك البناء القديم، غير أن القرون بلغت من تجسيم شأنه الظاهر ما لا تُبْصر معه سوى أناس قليلين، حتى بين أشد الناس ارتيابًا، تحرَّروا من سلطان الماضي، فاستطاعوا أن يضعوا بني إسرائيل في مكانهم الصحيح.

وقد يُشكُّ في شدة وطأة الماضي علينا عندما يُرى أقلُّ مفكرينا سذاجة، مثل مسيو رينان[٢٨]، يكتبون مثل الأسطر الآتية في أمر اليهود، قال رينان:

"لا يَجِدُ صاحبُ الروح الفلسفية، أي الذي يُبالي بالأصول، غيرَ ثلاثة تواريخ- ذات نفع من الطراز الأول- في ماضي البشرية. وهي: تاريخ اليونان، وتاريخ بني إسرائيل، وتاريخ الرومان. فمن هذه التواريخ الثلاث، يتألف ما يمكن تسميته بتاريخ الحضارة، ما دامت الحضارة نتيجة تعاون متعاقب بين بلاد اليونان، واليهودية، وروما"[٢٩].

ولما تحِنْ الساعة التي تُعَدُّ فيها تلك الأساطيرُ دليلا على التأثير القاطع لماضي الإنسان وتربيته في حالته الروحية. أجَلْ، يتخلص المؤلف- المشار إليه- من ذلك التأثير في بعض الأحيان- لا ريب، ولكنْ لا لطويل زمن. وهو يتخلص من ذلك، عندما يُبيِّنُ أن **النظام اليهودي بأسره، ليس إلا وجهًا بسيطًا للنظام الكَلداني.** وأن أساطير البابليين المعقدة، لم ينتحلها عالم الغرب المتمدن، إلا بعد أن تحوَّلت بمرورها من خلال روح الساميين البسيطة. وهو لا يتخلص

---

[٢٨] ارنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢): مؤرخ وكاتب فرنسي، اشتهر بترجمته للمسيح، التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقدًا تاريخيًا علميًا، وإلى التمييز بين العناصر التاريخية، والعناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس. فقامت الكنيسة الكاثوليكية لذلك وثارت عليه. من كتبه: "مستقبل العلم"، و"تاريخ نشأة المسيحية"، و"ابن رشد والرشدية". وله مناظرة مشهورة حدثت سنة ١٨٨٣ بينه وبين جمال الدين الأفغاني. جانبه الأسود أنه يعبّر في طيات ترجمته للمسيح وفي أعماله الأخرى عن احتقاره للإسلام. وهو صاحب أفكار عنصرية ذميمة.

[٢٩] أغفل الكاتب فيما أغفل: تاريخ الفرس، وتاريخ الهند، وتاريخ الصين، وتاريخ العرب. وربما لذلك استدرك جوستاف لوبون، ووضع كتابه في تاريخ الحضارات الأولى، بالإضافة إلى كتبه الأخرى عن تاريخ الهند والعرب.

مـن ذلـك، عنـدما يعـزو إلـى اليهـود شـأنًا عظيمًـا، ويَطـوي كَشْـحًا عـن أمـم، كالمصريين، والكلدانيين، كانت ذات أثر عظيم في تاريخ تقدم الحضـارة، علـى حين ترى أثر اليهود فيه تافهًا إلى الغاية.

لم يجاوز قدماء اليهود أطوار الحضارة السُّفلى، التي لا تكاد تُمَيِّزُ مِن طـور الوحشـية، وعنـدما خـرج هـؤلاء البـدويون، الـذين لا أثـرَ للثقافـة فـيهم، مِـن باديتهم ليستقروا بفلسطين، وجدوا أنفسهم أمـام أمـم قويـة، متمدنـة منـذ زمـن طويل، فكان أمرهم كأمر جميع العروق الدنيا، التي تكون في أحوال مماثلـة. فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخسِّ مـا فـي حضـارتها. أي لـم يقتبسـوا غيـر عيوبهـا، وعاداتهـا الضـارية، ودعارتهـا وخرافاتهـا. فقرَّبـوا لجميـع آلهـة آسيا. قرَّبوا لعَشْتَرُوت[30]، ولبَعْل[31]، ولمُولْك[32]، مِن القرابين ما هو أكثر جدًا مما قرَّبوه لإله قبيلتهم يَهْوَه[33]، العبوس الحقود، الذي لم يثقوا بـه إلا قليلاـ لطويل

---

[30] عَشْتَرُوت: كان الفينيقيون يعتقدون أن للبعل بعلة، أي زوجة، هي في درجة من العظمة، فعبدوها باسم "عشتروت"، ولقبوها أيضا بملكة السماء. ويعنون بها القمر. وكانت عشتروت أقدم من سائر معبودات الفينيقيين وأشهر. وقيل أيضًا: إن عشتروت لم تكن آلهة أخرى وزوجة للبعل، بل هي مظهر ثان له، أي أن التأنيث مجازي، أريد به صفة ثانية للإله بعل، والاثنان إله واحد. وهذا مستنتج من بعض النقوش والكتابات الفينيقية التي دعت عشتروت باسم البعل. ولو تأملنا في معبودات كل مدينة من مدن الفينيقيين لوجدناها تضيف إلى البعل والبعلة إلهاً ثالثا، فكان لهم في صور: بعل وعشتروت وملكارت. وكان لهم في صيدا: بعل وعشتروت وأشمون. وكان لهم في جبيل: إيل وبعل حبيل وأدونيس. وفي سفر القضاة (٦:١٠) "وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، وعبدوا البعليم، والعشتاروث، وآلهة ارام، وآلهة صيدون، وآلهة موآب، وآلهة بني عمون، وآلهة الفلسطينيين. وتركوا الرب، ولم يعبدوه".

[31] بَعْل: عبد الفينيقيون البعْل. ومعناه الإله الأكبر. وتوهموه بالشمس؛ إذ كانوا يعتقدون فيها القوة الخالقة، ولقبوه

بعل شمائم، أي رب السموات. وقد أصبح «بعل شاميم» الرب السامي الأسمى في الألف الأخير قبل الميلاد، كما أصبح تجسيداً للشمس والسماء ذاتها، ولذا فهو مانح المطر والشمس والخصب والمحاصيل. ولم يكن البعليم (جمع بعل)، مثل يهوه، آلهة حرب، بل كانت آلهة طبيعة مسالمة، تمثل قوى الخصب والحياة، وتتزاوج فيما بينها، فهي تنقسم إلى ذكور وإناث، وكانت زوجة بعل تُسمَّى «بعلة» أو «عشتارت» أو «عشيراه» أو «عنات» (موسوعة اليهود واليهودية).

[32] مُولْك: اسم كنعاني معناه "ملك". هو إله للعمونيين. كانوا يذبحون له ذبائح بشرية، ولاسيما الأطفال. وقد كان صنمه مصنوعًا من نحاس، جالسًا على عرش من نحاس، له رأس عجل، عليه إكليل. وكلٌّ من العرش والصنم مجوفين. فكانوا يشعلون في التجويف نارًا حامية، حتى إذا بلغت حرارة الذراعين الحمرة، وضعوا عليها الذبيحة، فاحترقت عاجلاً. وفي أثناء ذلك، يدقون الطبول لمنع سماع صراخها.

[33] يَهْوَه: الكلمة العبرية «يهوفاه» هي كلمة ساميّة قديمة، وقد تكون الكلمة من أصل عربي. ويذهب

زمن، على الرغم من كل إنذار جاء به أنبياؤهم[34]. وكانوا يعبدون عجولا معدنية، وكانوا يضعون أبناءهم في دُرْعان[35] مُحَمَّرَة من نار مولك[36]، وكانوا يحملون نساءهم على البغاء المُقدَّس[37] في المشارف[38].

البعض إلى أن الاسم مشتق من الفعل «هوَى»، بمعنى «سقط»، أي أن يهوه هو مُسقط المطر ومرسل الصواعق. أو «هوَى» بمعنى «وقع»، أو «حدث» وما حدث يكون. ويُقال إن «يهوه» مثله مثل معظم الأسماء العبرية في العهد القديم، صيغة مختصرة لعبارة «يهفيه أشير يهوفيه»، أي «يخلق الذي هو موجود»، أو لعلها اختصار «يهوه تسفاوت» أي «رب الجنود». ويميل معظم العلماء إلى نطق الاسم على أنه «يهوه»، وإن كانت التفسيرات بشأن ذلك ليست نهائية. ويأتي ذكر «يهوه» أكثر من ستة آلاف مرة في العهد القديم، وهو أكثر أسماء الإله شيوعاً وقداسة. وكان يتفوه به الكاهن الأعظم فقط داخل قدس الأقداس في يوم الغفران. وقد نسب إليه العهد القديم صوراً عديدة من القسوة والوحشية. فهو يأمر شعبه بالإبادة والخيانة والغدر. وهو إله غيور يناصر شعبه ظالماً أو مظلوماً، ويعاقب الأبناء على الجرائم التي يرتكبها الآباء، ويعاقب الشعب على ما يرتكبه الملك، بل يعاقب على الأخطاء التي تُرتكب عن غير عمْد، وهو محدود المعرفة تُنسَب إليه صفات البشر كافة (موسوعة اليهود واليهودية).

[34] منذ دخول اليهود فلسطين، أخذ العبرانيون عن الكنعانيين الكثير، بما في ذلك الزراعة وعبادة بعْل. وكانوا يعبدون يهوه وبعلاً جنباً إلى جنب. وقد دعا الأنبياء- في القرن التاسع قبل الميلاد، ابتداءً من إلياس- الشعب إلى أن يهوه هو الإله الواحد، كما قال الله تعالى: (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) [الصافات: ١٢٣-١٢٨]. وقد ورد ذكر عبادة بني إسرائيل للبعل في الكتاب المقدس كثيرًا، وغضب الله عليهم من أجل ذلك، ومنه: (قضاة ٨:٣٣ وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم، وجعلوا لهم بعل بريث إلهًا).

[35] دُرْعان وأذرُعٌ: واحدها الذّراعُ بالكسر، من طرَفِ المِرْفق إلى طرَفِ الإصبع الوُسْطى والساعِدُ. وقد تُذكَّرُ فيهما (القاموس المحيط مج١، ص٩٢٥).

[36] سقط اليهود مرارًا في عبادة هذا الصنم مع أن أنبياءهم نهوهم عن ذلك، وفي الكتاب المقدس: (لاويين ١:٢٠) "وكلم الرب موسى قائلا: ٢ وتقول لبني إسرائيل. كل إنسان من بني إسرائيل، ومن الغرباء النازلين في إسرائيل، أعطى من زرعه لمولك، فانه يُقتل، يرجمه شعب الأرض بالحجارة.٣ وأجعل أنا وجهي ضد ذلك الإنسان، وأقطعه من شعبه؛ لأنه أعطى من زرعه لمولك لكي ينجس مقدسي؛ ويدنس اسمي القدوس.٤ وإن غمض شعب الأرض أعينهم عن ذلك الإنسان عندما يُعطي من زرعه لمولك، فلم يقتلوه ٥ فإني أضع وجهي ضد ذلك الإنسان، وضد عشيرته، وأقطعه وجميع الفاجرين وراءه- بالزنا وراء مولك- من شعبهم". وفيه أيضا: (أرميا ٣٢:٣٥) "وبنوا المرتفعات للبعل، التي في وادي ابن هنوم؛ ليجيزوا بنيهم وبناتهم في النار لِمُولَكَ، الأمر الذي لمْ أوصيهم به، ولا صعدَ على قلبي، ليعملوا هذا الرجس، ليجعلوا يهوذا يخطئ".

[37] البغاء المقدس: بجانب البغاء السياسي أو الاجتماعي، يوجد نوع آخر من البغاء، يطلق عليه اسم: "البغاء الديني"، أو "البغاء المقدس"؛ لأنه كان يعد شعيرة من شعائر الدين، أو وسيلة لإرضاء الآلهة الوثنية والتقرب إليها! وقد عثر الباحثون على عدة مظاهر لهذا النظام عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند البدائيين. فعند قدماء العبريين كانت توجد طوائف من النسوة يزاولن البغاء في المعابد (هوشع الإصحاح الرابع، الآية ١٤). وكان يعتقد أنهن يجلبن الخير والبركة لمن يتصل بهن. وظل هذا التقليد الديني سائدًا إلى أن حرّمه سفر التثنية (الإصحاح ٢٣، الآية ١٧).

[38] المشارف: واحدها مشرف. ومَشارفُ الأرْض: أعاليها (القاموس المحيط مج١، ص١٠٦٥).

وأثبتَ اليهودُ عجزهم التام العجيب، عن الإتيان بأدنى تقدم في الحضارة، التي اقتبَسوا أحَطَّ عناصرها. واليهود، بعد أن جمعوا ثروات وَفقَ غرائزهم التجارية القوية، لم يَجدوا بينهم بنَّائين ومتفننين قادرين على شَيْد مبانٍ وقصور. فاضطُروا إلى الاستعانة- على ذلك- بجيرانهم الفينيقيين على الخصوص، كما تدُلُّ عليه التوراة[٣٩]. واليهود قد اقتصرت معارفهم على تربية السوائم[٤٠]، وعلى فلح الأرض، وعلى التجارة بوجهٍ خاص.

وما كان فلاح اليهود ليدومَ غيرَ هُنَيْهَة- مع ذلك، فقد أسفرتْ غرائزهم في النهب والسلب. وقد أسفرَ تعصُّبُهم، عن عدم احتمال جميع جيرانهم لهم، فلمْ يَشُقّ على هؤلاء الجيران أن يستعبدوهم[٤١]. ثم إن اليهود عاشوا عَيْش الفوضى الهائلة على الدوام تقريبًا، ولم يكن تاريخهم الكئيب غير قصةٍ لضروب المنكرات. فمن حديث الأسارى، الذين كانوا يُوشَرون بالمنشار أحياءً، أو الذين كانوا يُشوَوْن في الأفران[٤٢]، فإلى حديث المِلِكات، اللاتي كنَّ يُطرَحن لتأكلهن الكلاب[٤٣]، فإلى حديث سكان المدن، الذين كانوا يُذبحون من غير تفريق بين الرجال، والنساء، والشيب، والولدان. فما كان الآشوريون لِيَبْدوا أشدَّ من ذلك.

والبؤس الأسود الذي صُبَّ من فوره على بني إسرائيل، هو الذي حال- لا ريب- دون انحلالهم التام، وأدَّى إلى محافظتهم على وحدتهم العجيبة. وما أوحِي به إليهم دومًا، من كُرْه عميق لمختلف الأمم التي اتصلوا بها، صانهم من

---

[٣٩] صموئيل الثاني (٥:١١) "وأرسل حيرامُ ملكُ صور رسلا إلى داود، وخشبَ أرز، ونجارين وبنائين، فبنوا لداود بيتا".

[٤٠] السوائم: جمع سائمة، وهي الخيل والإبل والشاء والبقر، يرسلها صاحبها في المرعى لتأكل ما تجد، وهذا من قولك سَوَّم فيها الخيلَ أي أرسلها (لسان العرب ٣١٤/١٢).

[٤١] التثنية (٨:٧) "بل من محبة الرب إياكم، وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم: أخرجكم الرب بيد شديدة، وفداكم من بيت العبودية، من يد فرعون ملك مصر".

[٤٢] صموئيل الثاني (٣١:١٢) "وأخرجَ الشعب الذي فيها، ووضعهم تحت مناشير، ونوارج حديد، وفؤوس حديد. وأمرَّهم في أتون الآجرّ. وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون. ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم".

[٤٣] الملوك الأول (٢٣:٢١) "وتكلم الرب عن إيزابل أيضًا قائلا: إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل".

الزوال بانصهارهم فيها.

وما حدَث مِن سَحْق الدول المجاورة إيَّاهم، ومِن استعباد الدول الآسيوية العظمى لهم في كل حين، ومن استرسالهم في الفتن الداخلية الدائمة، ووقوعهم في داء الفوضى العُضال عند استردادهم ظلا من الحرية- أوجَبَ ظهورَ أحوالٍ، لا تعرف الروح البشرية معها سوى وساوس القنوط، لِما لا يكون لديها من عوامل الأمل، فهناك كان يظهر أولئك المتهوسون، وأولئك المتعصبون الراجفون، ذوو النفوذ العميق في نفوس الجموع على الدوام. فما كان لأمَّة مِن العَرَّافين والمُلْهَمِين والمجاذيب، مثل ما كان لبني إسرائيل. وبنو إسرائيل، لم يظهر فيهم من النوابغ، غير الأنبياء والشعراء[٤٤].

وكان الأنبياء والشعراء يغترفون إلهاماتهم من مصدر واحد. وهؤلاء، وأولئك، إذ كانوا يعيشون في جوٍّ واحدٍ من المُحَرِّضات الدماغية، بَدَتْ سماتُ هذا الجو في جميع آثارهم.

وإذا عَدَوْتَ العهد القديم، وجدتَ بني إسرائيل لم يؤلفوا كتابًا. والعهد القديم هذا، لم يشتمل على شيء يستحق الذكر، سوى ما جاء فيه من بعض الشعر الغنائي. وأمَّا ما احتواه من أمور أخرى، فيتألف من رؤى أناس متهوسين، ومِن أخبار باردة، وأقاصيص داعرة ضارية[٤٥].

وإذا عدوتَ القرآن، على ما يُحتمل، لم تجد كتابًا نال من الحظوة في العالم كذلك الكتاب. فالحقُّ أن التوراة والقرآن، هما الكتابان اللذان كان لهما في الدنيا

---

[٤٤] لا شك أن الله فضل بني إسرائيل في وقت من الزمان على غيرهم. فلما أعرضوا أعرض عنهم. يقول الله سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [الجاثية : ١٦-١٧].

[٤٥] العهد القديم: قسم بنو إسرائيل أسفار العهد القديم ثلاثة أقسام بحسب زمان تدوينها. وهي: الناموس، والأنبياء، والأسفار المقدسة. وهذا التقسيم يرجع إلى عزرا الكاتب، الذي قام بجمع أسفار العهد القديم في مجلد واحد، بعد الرجوع من السبي. وقسم اباء الكنيسة أسفار العهد القديم اربعة أقسام رئيسية بحسب موضوعها. هي: ١ـ الأسفار التشريعية. وهي أسفار موسى النبي الخمسة. ٢ـ الأسفار التاريخية. وهي من سفر يشوع، إلى سفر استير. ٣ـ الأسفار التعليمية. وهي من سفر ايوب، إلى نشيد الإنشاد. ٤ـ الأسفار النبوية. وهي من سفر أشعياء النبي، إلى سفر ملاخي النبي.

من القرّاء، ما لم يتفق لكتاب آخر. والحقُّ أن التوراة والقرآن كانا أكثر الكتب تأثيرًا في النفوس، وقد استلهمهما أعاظم الفاتحين، وبفعلهما انقضَّ الغرب على الشرق، وباسمهما قامت إمبراطوريات عظيمة، وهُدِمتْ إمبراطوريات عظيمة أخرى.

وما للتوراة من نفوذ عجيب، فيُعدُّ من أبرز الأمثلة على شأن الأوهام الكبير في تاريخ الأمم. والواقع أنه كان لهذا الكتاب حظ مدهش لتلاوته من قبل ملايين البشر، الذين رأى كلُّ واحد منهم ما أراده فيه، لا ما وَجَد فيه بالحقيقة. ولن يحدث مثلُ هذا الحادث الناشئ عن الخيال المشوَّه، على ذلك القياس الواسع في تاريخ العالم- لا ريب. وما الصفحات التي عَرَفت أجيالُ الآدميين المتعاقبة أن تجد فيها أسمى مبادئ الأخلاق، إلا أخبار ما يتألف منه تاريخ اليهود من العهارة والذبح، ومن حِيَل يعقوب[46]، وزناء بنات لوط[47]، وسفاح داود[48]،

---

[46] حِيَل يعقوب في الكتاب المقدس كثيرة، منها أنه استولى على البكورية من أخيه الأكبر عيسو، في سفر التكوين: "٢٥:٢٩ وطبخ يعقوب طبيخا، فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا. ٢٥:٣١ فقال يعقوب: بعْنِي اليوم بكوريتك. ٢٥:٣٣ فقال يعقوب: احلف لي اليوم. فحلف له. فباع بكوريته ليعقوب". ثم ذهب يعقوب إلى أبيه إسحق طالبًا منه أن يباركه على أنه عيسو، وقد كان عيسو هو المستحق أن يرث ميراث الابن الأكبر، ويصبح أبا للأمة العظيمة، التي وعد بها الله جدَّه إبراهيم وإسحقَ أبيه. وفي سفر التكوين هذه القصة. ومنها "١٩:٢٧ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك. قد فعلت كما كلمتني. قمْ اجلس، وكلْ من صيدي لكي تباركني نفسك".

[47] في سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: " ٣٠وصعد لوط من صوغر، وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكنَ في المغارة هو وابنتاه ٣١ وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخَ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض٣٢ هلمّ نسقي أبانا خمرًا، ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلا٣٣ فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة. ودخلت البكر، واضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها٣٤ وحدث في الغد: أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا، فادخلي، اضطجعي معه. فنحيي من أبينا نسلا٣٥ فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضا. وقامت الصغيرة، واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها٣٦ فحبلت ابنتا لوط من أبيهما".

[48] قصة داود المفتراة في سفر صموئيل الثاني: "٢ وكان في وقت المساء، أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدا ٣ فأرسل داود، وسأل عن المرأة. فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت إليعام، امرأة أوريا الحثي؟!٤ فأرسل داود رسلا، وأخذها فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهّرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها ٥ وحبلت المرأة، فأرسلت، وأخبرت داود، وقالت: إني حُبلى .١٤ وفي الصباح، كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا ١٥ وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريًا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيُضرب، ويموت".

والبغاء في المشارف[٤٩]، وضروب التقتيل بلا رحمة[٥٠]، وما إلى ذلك من أنباء ذلك الشعب المتوحش التافهة.

تعلم الشعوب النصرانية منذ ألفي سنة، الطبيعة الحقيقية لإلهها القادر على كل شيء. ونحن إذا ما رجعنا إلى ما هو أبعد من ذلك، رأينا أن النظام الكِلْداني الكوني، القائل بالخلقة في سبعة أيام، وبآدم وحواء، وبالجنة، وبالطوفان، وسفينة نوح[٥١]، هو الذي يُغذي أذهان أجيال الغرب، منذ قرون كثيرة. وكان لابدَّ من جهد خارق للعادة، يأتي به خيال الشعوب الآرية[٥٢]؛ لتعرف هذه الشعوب إلهها الحليمَ العامَّ، من خلال يَهْوَه الجبَّار العَبوس، الذي هو معبود بني إسرائيل الكئيب. هذا الطاغوت الذي ما انفكَ يُطالِبُ بالقرابين والمُحرَقات، واللحم المشوي والدم[٥٣]. وغدتْ الخرافات الصبيانية- أو القبيحة- التي وضعها كاتبو التوراة (لِيُعَلِّموا قومًا من الجُهَّال أن إلههم يَحكم بينهم رأسًا، فيكافئهم ويجازيهم- طورًا بعد طور- على وجه واضح، والتي لم يكن لها غيرُ أثر يسير في كُفران اليهود، فرفضَ أحدُهم أيوبُ مبدأها الأساسيَّ رفضَ الآمرِ الناهي) قاعدةً للأديان، التي ارتضاها الغرب مدة عشرين قرنًا، فعَدَّها أناسٌ مثل: سان أوغستين، وغاليليو، ونيوتن، وبسكال، حقيقة خالصة.

وإني، حين ألاحظ مثل تلك الحوادث، أصِلُ مستنتجًا إلى أن الأوهام تمثل في

---

[٤٩] ارمياء (٢:٢٠) "لأنه منذ القديم كسرت نيرك، وقطعت قيودك، وقلت: لا أتعبد. لأنك على كل أكمة عالية، وتحت كل شجرة خضراء، أنت اضطجعت زانية".

[٥٠] التقتيل بلا رحمة في كتابهم المقدس كثير. منه ما في سفر التثنية: "١٠ حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح ١١ فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك. فكلُّ الشعب الموجود فيها، يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك ١٢ وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا، فحاصرها ١٣ وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ١٤ وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. ١٥ هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا، فلا تستبق منها نسمة ما ١٧ بل تحرّمها تحريمًا: الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزّيين والحوّيين واليبوسيين، كما أمرك الرب إلهك".

[٥١] هذا النظام ليس كلدانيًا. ولكنه نظام إلهي، جاء به الوحي من الله، على جميع أنبيائه ورسله. من آدم ونوح، إلى موسى وعيسى ومحمد- عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

[٥٢] هم الأوربيون.

[٥٣] اللاويين (٨:٢١) "وأما الأحشاء والأكارع، فغسلها بماء، وأوقد موسى كل الكبش على المذبح. إنه محرقة لرائحة سرور. وقود هو للرب. كما أمر الرب موسى".

تطوير الأمم دورًا عظيمًا، لا مبالغة في أهميته.

ولا أعالج في هذا الكتاب تاريخ الأديان التي سيطرت على الغرب، منذ نحو ألفي سنة، وتكوين هذه الأديان، لِمَا يضيق به صدرُ كتاب كهذا الكتاب. ولا أبحث، إذن، في سلسلة الأحوال التي استطاع بها الشعب اليهودي، الذي هو أكثر الناس تمرُّدًا على مبادئ عِرْقه البسيطة الكبرى- أن ينشرَ هذه المبادئ في العالم. ولا أبيِّنُ، إذن، أن النصرانية لم تكن حادثًا مفاجئًا، خلافًا لما يُعْلم، وأنها ترتبط بسلسة من التطورات التدريجية في الزُّون[٥٤] الكِلداني القديم، وفي أطوار الديانات الآرية الفطرية القديمة، وإنما اقتصر على بياني نصيب اليهود في تاريخ الحضارة.

والآن، يمكننا أن نلخِّص هذا الفصل بأن نقول: إن تأثير اليهود في تاريخ الحضارة صفر، وإنه واسع من الناحية الخلقية. وإذا كانت البشرية لا تزال سائرة وراء الأوهام على الخصوص، وجب علينا أن نعترف بأنه خَرَج من صدر اليهود وهْمٌ، مِن أشدِّ ما سادَ العالمَ هَوْلا، فقد خضع الغرب لسلطانه نحو ألفي سنة، وسيظل خاضعًا له عدة قرون- لا ريب. ولا يزال مُمثل المبادئ التي جاء بها نجارٌ في قرية صغيرة من بلاد الجليل أقوى ملوك الأرض[٥٥]، ذلك الممثل الذي تعد مراسيمُه خالية من شائبة الخطأ، والذي يُذعن لسلطانه ثلاثمئة مليون من الناس[٥٦].

واليهود لِمَا كان من نفوذهم المذكور، غير المباشر في العالم، تخصص لهم صفحات قليلة في تاريخ الحضارات الأولى، وإن لم يستحقوا أن يُعدوا من الأمم المتمدنة بأي وجه!

---

[٥٤] الزون: مَوْضِعٌ تُجْمع فيه الأصنام، وتُنصب، وتُزَيَّن (كتاب العين ٧/٣٨٥).

[٥٥] هذا الانتقاص من نبي الله عيسى ﷺ غير مقبول. ويصدم مشاعر جميع المؤمنين به.

[٥٦] يقدر عدد المسيحيين في العالم لعام ٢٠٠٦م: ٣٣,٠٣% من سكان العالم الذين يربو تعدادهم عن المليارين نسمة؛ منهم ١٧,٣٣% كاثوليك (حوالي ١,١٣ مليار)، ٥,٨% بروتستانت (حوالي ٣٧٨ مليونا)، ٣,٤٢% أورثذكس (حوالي ٢٢٣ مليونا) و١,٢٣% إنجيليون (حوالي ٨٠ مليونا). (ويكيبديا- الموسوعة الحرة).

٢ـ البيئة والعِرق

كان بنو إسرائيل من الساميين، أي من العرق الذي كان ينتسب إليه الآشوريون، والعرب.

ومن المقرَّر اليوم، أن بلاد العرب الوسطى والشمالية كانت مهد الساميين. ولكن بينما ظلَّ معظمُ الساميين منتشرين في جنوب جزيرة العرب، هاجرَ فريق منهم إلى الشمال، موْغِلا في بلاد بابل، حيث كان السلطان لحضارة السومريين والأكاديين. فأقاموا بها من الزمان، ما أشبعوا فيه من تلك الحضارة. ثم كثر عددهم، فهاجروا من جديد في أدوار مختلفة، فتقدموا نحو الشمال أكثر من قبل، وتقدَّموا نحو الغرب.

والساميون الذين بَقوْا في بلاد العرب هم أجداد الشعب العربي، والساميون الذين مرُّوا من موطن الحضارة في الفرات الأدنى، وانتشروا في جميع آسيا السابقة، هم الآشوريون والإسرائيليون.

ولم تثبت إقامة أجداد بني إسرائيل بما بين النهرين من أحاديثهم التي جاء فيها نبأ خروج إبراهيم من مدينة أور كلدة فقط[٥٧]، بل ثبتت أيضًا بالآثار التي ظلت باقية في معتقداتهم وطبائعهم، من ديانة السومريين والأكاديين وعاداتهم.

وفيما كان ساميو الجنوب، أي الأهالي العرب، يحافظون على عبقرية عِرْقهم النقي من كل تأثير أجنبي، فلا يزالون يُبْدون لنا مثال أولئك البدويين،

[٥٧] يقول الله ﷻ عن إبراهيم: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [آل عمران: ٦٧].

ذوي المبادئ البسيطة، والعبادة القليلة التعقيد، والطبائع الفطرية الثابتة، التي نتمثلها وَفقَ ما جاء في سفر التكوين من الأوصاف. كان ساميو الشمال يُعقّدون نظامهم الكوني، فيثقلون عبادتهم بالشعائر والجزئيات، فينتحلون طائفة من الآلهة المجهولة في البادية، ويشيدون المدن، ويَضعون مختلف النظم، ويحاولون تأسيس أمم منظمة قوية، على غرار الأمم التي بهرتهم فنونها وعلومها، فقلبت خيالهم.

والعرب في إبّان سلطانهم الكثير الاتساع، وفي عهد حضارتهم العظيمة- ظلوا في مبادئهم العامة وعبادتهم، أبسط من الآشوريين والفينيقيين واليهود مع ذلك. والإسلام- بعد كل شيء- **هو الدين الوحيد الوثيق التوحيد، الذي جاء به الساميون، وهو الدين الوحيد الخالي من أي أثر لِوَثني، وهو الدين الذي يَرفضُ الأنصابَ رفضًا تامًا.**

والله في سموه وجلاله وروحه، هو خلاف يَهْوَه الضاري، الذي لم يكن- بغيرته وغضبه وهُزال انتقامه، غير أخ صغير لمولك، وكاموش.

ومحمد، حين قال بالنظام الكوني اليهودي، لم يقلْ في الحقيقة بغير نظام قدماء الكلدانيين الكوني[٥٨]. ووَجَدَتْ مبادئُ الساميين المبهمة جسدًا في تلك المذاهب المادية المعيَّنة التي لم يكونوا مخترعين لها، والتي لولاها لتعذر عليهم أن يكونوا ذوي هيمنة على روح الآريين الإيجابية التصويرية.

وهكذا، يثبت ما يشاهَد من الفرق العميق بين ساميِّ الجنوب، وساميِّ الشمال: أن سامي الشمال ابتعدوا عن مثال عرقهم الأصلي؛ لاتصالهم الطويل بأمم أرقى منهم كثيرًا. وتثبت قصة التوراة، وتثبت بأحسن من ذلك آثار المعتقدات الكلدانية الواضحة، والنظام الكوني المقتبس من بابل، أن تلك الأمم التي أقام ساميو الشمال بينها، هي الأمم السُومرية والأكّادية. أي الآدُميون الذين استقروا منذ القديم بسهول الفرات الأدنى.

---

[٥٨] هذا النظام الكوني إلهي. إلا ما دخل عليه من تحريف وتبديل، صححه الإسلام. كقول الله تعالى عن الخلق: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق: ٣٨].

وبنو إسرائيل، بعد أن تركوا أولئك، أقاموا بوادي الأردن القليل الأهمية في الظاهر، وذلك في أحوالٍ بالغَ مؤرخوهم في روايتها.

ولم يَجُلْ بنو إسرائيل في البحر، كما كان يجول جيرانهم الفينيقيون. وذلك لأنهم لم يكادوا يكونون سادة للساحل. وكان قد جاء من إقريطش[٥٩]، على ما يُظَنُّ، شعبٌ غيرُ ساميٍّ، يُعرَف بالفلسطينيين[٦٠]، فملك الساحل، واستوطنه بنشاط. واليهود لم يملكوا من الساحل لطويل زمن، سوى القسم الممتد من يافا إلى رأس الكرمل. وهناك يقع سهل شارون[٦١] العجيب، الذي تمتد مُرُوجُه وحَصائدُهُ إلى البحر، غير أن الشاطئ نفسه رملي، قليل الصلاح لإنشاء مرفأ فيه.

ولم تكن مجاورة البحر هي التي جعلت امتلاك فلسطين أمرًا نافعًا، ولا خِصب فلسطين وحده هو الذي كان عظيمًا، عندما كانت ذاتَ غابٍ لم تُقطع تمامًا في أيامنا. وإنما كانت فلسطين إحدى طرق العالم القديم الرئيسة كبابل، ولكن على درجة أقل من درجة بابل. فكان يتألف من أوديتها الضيقة، والطريق البرية الوحيدة بين مركزي حضارة العالم الكبيرين، بين العراق ومصر، فيتصل أحد هذين المركزين بالآخر بتلك الطريق، فيتبادلان بها محصولاتهما أيام السلم، ويسوقان بها جيوشهما أيام الحرب.

وكانت مَجِدُّو[٦٢] مفتاح تلك الأودية في الجنوب، وكانت قادش[٦٣] مفتاحها في

---

[٥٩] إقريطش: هي كريت، أكبر الجزر اليونانية، وخامس أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط هي تطل جنوبا على بحر إيجه. وعلى رغم أن مساحتها لا تزيد عن ٨٣٣٦ كيلومترا مربعا، وعدد سكانها أقل من نصف مليون نسمة، فهي من أهم جزر اليونان من حيث أهميتها الحضارية (ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

[٦٠] أصل الفلسطينيين ليس أوربيًا يونانيًا، كما هو شائع، وكما ردد الكاتب. بل إنها نظرية ذات غرض سياسي، تهدف إلى قطع الجذور التاريخية للفلسطينيين الحاليين، عبر فصلهم عن أجدادهم القدماء. وإنما أصلهم الحقيقي عربي من سكان الجزيرة العربية، وبالتحديد سكنوا هضبة نجد قبل الميلاد. (انظر كتاب نخلة طيء: كشف لغز الفلسطينيين القدماء، للمؤرخ الفلسطيني زكريا محمد، دار الشروق، ٢٠٠٤).

[٦١] سهل شارون: سهل خصب، يقع على الساحل، تجود فيه زراعة الحمضيات والعنب والزيتون والحبوب. كما يزرع فيه أيضًا شجر التفاح، وشجر اللوز، وخضراوات الصيف والشتاء.

[٦٢] مَجِدُّو: مدينة ملكها الكنعانيون منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. ومكان مجدّو الآن هو تل المتسلم، الذي يقع على مسافة عشرين ميلا جنوبي شرق حيفاء في الطرف الجنوبي من سلسلة الجبال التي

الشمال، وأعارتْ تانِكَ المدينتان من اسميهما كثيرًا من المعارك المشهورة الدامية.

ولم يكن ذلك الوضع المتوسط غير ذي تهلكة، فأمَّة إسرائيل الصغيرة، إذ قامت بين نِينَوى[٦٤] المرهوبة، ومصر القوية. وكانت تستند إلى إحداهما لمقاومة الأخرى، كانت تشترك في الصراع في الغالب، فتُسحَق فيه نهائيًا[٦٥].

ولكن القوافل المثقلة بالنسائج والحُلي، والتِبْر والعاج المُشذب[٦٦]، كانت تجوب فلسطين بلا انقطاع في فواصل الحروب، فلا يدعُ الإسرائيلي، الماهر في التجارة في كل زمن، والطامع في الربح، تلك الثروات تُجاوز أرضه من غير أن يحتفظ بشيء منها لنفسه.

وحقُّ المجاوزة هو مصدر الرخاء الرئيس، الذي كان ينمو في الغالب وبسرعة في اليهودية، وكان منبع الزرابي[٦٧] الجميلة، والنُسُج الثمينة، والثياب الزاهية، والحُلي اللامعة، والمرصوفة الحجارة، التي كانت تستهوي أبناء يعقوب على الدوام، فيرفع الأنبياء عقيرتهم ضدها. هو ذلك الوضع المتوسط، وأولئك السماسرة اليهود، الذين غَدَوا مدينين لموقع البلد الذي سكنوه.

وروح اليهود التجارية، التي هي آية قومهم الكبرى، نشأت- أو اشتدت على

تنتهي بجبل الكرمل في الشمال.

[٦٣] قادش: مدينة سورية، تقع علي الضفة الغربية لنهر العاصي، جنوب بحيرة حمص بعدة كيلومترات. وقد سيطرت على الشرق الأدنى القديم، حوالي عام ١٢٨٥ ق.م، قوتان عظميان: مصر في الجنوب، والحيثيون بآسيا الصغرى في الشمال. وأرادت كل قوة منهما أن تلعب الدور القيادي في المنطقة، وتبسط نفوذها في الأقاليم الواقعة بين قطريهما؛ مثل الشام وفلسطين. حتى التقت القوتان العظمتان أخيرًا في معركة قادش، في العام الخامس من حكم الملك رمسيس الثاني، حوالي عام ١٢٨٥ ق.م (eternalegypt.org).

[٦٤] نينوى: مدينة قديمة، أسسها الآشوريون. كانت تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، شرقي جنوب مدينة الموصل. ومدينة نينوى ذات تاريخ عريق، يرجع إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وأصبحت عاصمة الآشوريين من القرن الحادي عشر، وإلى ٦١١ قبل الميلاد.

[٦٥] القضاة (١٣:١) "ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب؛ فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعين سنة".

[٦٦] المشذب: المُفرطُ في الطول (لسان العرب ٤٨٦/١).

[٦٧] الزرابي: البُسُطُ وقيل كلُّ ما بُسِطَ واتُّكِئَ عليه وقيل هي الطنافِسُ وفي الصحاح النَّمارقُ والواحد من كل ذلك زَرْبِيَّة (لسان العرب ٤٤٧/١).

الأقل- بالدور الذي كان عليهم أن يمثلوه في القرون الخالية، بين آسيا، ووادي النيل، وبمشاهدتهم القوافل الكثيرة تَمُرُّ من طرقهم، ناقلة من بقعة إلى أخرى نفائسَ الحضارتين، اللتين كانتا أرقى حضارات العالم وألطفها.

ثم إن فلسطين- إقليمًا، وإنتاجًا- كانت من البقاع المفضّلة في آسيا الغابرة، فهي إذ كانت مستورةً بفروع لبنان، بدتْ جامعة لجميع الفصول، ولمحاصيل البقاع الأخرى، بفضل اختلاف مرتفعاتها.

وفيما كنتَ ترى تحت ذرى الثلج اللامعة، منحدراتٍ مغطاةٍ بالغاب والمراعي، كنتَ تشاهد في السهول حقولا خصيبة، منبتة للكتان والشعير والبُر.

وخِصْب فلسطين في القرون القديمة كان مشهورًا، فقد بهرت العبريين عندما خرجوا من جزيرة سيناء الجديبة، وكان روادُهم يأتونهم بما يُثير الحماسة، مِن وصْفٍ لتلك البقعة، "التي تجري فيها جداول من لبن وعسل"[٦٨]، فيُرونهم نماذج من أثمارها اللذيذة، وقطوف عنبها العظيمة، التي لا يستطيع الرجل الواحد أن يحمل واحدًا منها[٦٩].

وكان يتألف من شجر العنب والتين والزيتون، أهم مصادر ثروة البلاد، فأكثرت التوراة من ذكرها[٧٠].

وكانت جميع الأشجار المثمرة، تنبت في المنحدرات الكثيرة المتموجة في كل ناحية من نواحي البلاد، الممتدة بين بلد الجليل الباسم، وشواطئ البحر الميت.

واليوم أسفَرَ قطْعُ الغاب، وإهمالُ الإدارة الإسلامية (العثمانية)، وهَوْلُ الأعراب النهّابين- عن امتداد رمال الصحراء إلى الأراضي[٧١]، ودخول رخاء الماضي في عداد الذكريات، مع أن يد الإنسان في القرون القديمة، كانت تغني عن بخل الطبيعة في تلك الأماكن، فكان الرّيُّ المصنوع، يَمُنُّ على الأرض بما

---

[٦٨] التثنية (٨:٨) "أرض حنطة وشعير، وكرم وتين، ورمان. أرض زيتون زيت، وعسل".
[٦٩] العدد ٢٣:١٣.
[٧٠] الخروج ٣:٨. الخروج ٣:١٧. الخروج ١٣:٥. اللاويين ٢٠:٢٤. العدد ١٣:٢٧. وغيرها.
[٧١] في نهاية القرن التاسع عشر.

تعطي به ما لا تعطيه لعدم الماء. فكانت جميع فلسطين، تقريبًا، تشابه بطرائها وخصبها، الواحات الساحرة، التي لا تزال تنشأ على ضفاف السيول المتوهجة، متدحرجة نحو البحر الميت، أو نحو البحر المتوسط.

وعَرفَ بنو إسرائيل أن يستفيدوا من تلك البقعة السعيدة. وكان بنو إسرائيل زرّاعًا ماهرين. وبنو إسرائيل لم يحذقوا شيئًا غير هذا. وهم إذ كانوا عاطلين من أيّ فن، ومن أيّ علم، ومن أية صناعة. وهمْ إذ لم يزاولوا التجارة إلا كوسطاء، وجّهوا عنايتهم إلى حقولهم، وإلى مواشيهم.

وتجد كتبهم المقدّسة حافلة بالنعوت الرعائية، وبالمقايسات، والأمثلة المقتبسة من حياة الفلاحين والرعاة. وكان لأولئك القوم شعور بالطبيعة إلى درجة بعيدة. وأرادَ مؤلف سفر الملوك أن يُوجّه نظرنا إلى كثير من أمثال سليمان ونشائده فقال:

"وتكلم في الشجر. من الأرْز الذي على لبنان، إلى الزُوفَى[72] التي تخرج في الحائط. وتكلم في البهائم والطير، والزّحّافات[73] والسمك"[74].

ولم يَمّح الساميُّ البدويُّ حتى بفعل القهر والعادة، وهو الذي لم يغادر صحاري جزيرة العرب، إلا قاصدًا سهول العراق المحرقة. وهو الذي أبْصَرَ في مصر أراضي مستوية، تقطعها القنوات من أرض جاسان[75]. وهو الذي بَهَرَته أماكن فلسطين المختلفة، وتلالها الضاحكة، ومحاصيلها المتنوعة.

وإليك كيف يُنْبئُ النبيُّ إرْميا بخلاصهم من إسارة بابل:

"هكذا قال الربُّ: إني أبنيكِ بَعْدُ، فتُبْنَيْنَ يا عذراءَ إسرائيل!...تَغرسينَ بَعدُ

---

[72] الزوفى: نبَاتٌ بجبَال القدس (تاج العروس، مج١، ص ٥٨٩٩).
[73] المراد هنا الزواحف التي تمشي على بطنها.
[74] الملوك الأول ٣٣:٤.
[75] أرض جاسان: منطقة خصيبة في مصر، كثيرة المرعى، واقعة شرق الدلتا. وهي المعروفة الآن بالشرقية، ممتدة من جوار أبي زعبل، إلى البحر، ومن برية جعفر، إلى وادي توميلات. وهناك استقبل يوسف أباه وإخوته لما حضروا من أرض كنعان. وقد أعطاها يوسف لأبيه وإخوته، فسكنوا فيها هم وذريتهم من بعدهم نحو مائتي سنة. وكانت تعد من "أفضل الأرض" (تك ٤٦: ٣٤ و ٤٧: ٦) (st-takla.org).

كُرومًا في جبال السامرة، فيَغرس الغارسون، ويَبتكرون"[٧٦].

"فيأتون، ويُرَنِمونَ في مرتفع صهيُون. ويَجْرُون إلى جُوْدِ الربّ، إلى البُر والسُّلاف والزيت، وأولاد الغنم والبقر"[٧٧].

وظل بنو إسرائيل قومًا من الزراع والرعاة، حتى بعد صلتهم الطويلة بالحضارة الكلدانية الساطعة، حتى بعد إقامتهم بمصر. وما فتئت العادات القديمة التي اتفقت لهم في المراعي الابتدائية الواسعة، والطبائع السامية البسيطة تستحوذ عليهم، ولم تؤدِ المؤثراتُ الأجنبية- التي أبصرناها- في طبائعهم وديانتهم، فيختلفون بها عن إخوانهم- عرب البادية، إلى غير تغيير سطحي فيهم من حيث النتيجة.

وبقيَ بنو إسرائيل، حتى في عهد ملوكهم، بَدَويينَ أفاقين، مفاجئين مُغِيْرين، سفاكين مولعين بقطاعهم، مندفعين في الخصام الوحشي. فإذا ما بلغ الجهد منهم، ركنوا إلى خيال رخيصٍ، تائهة أبصارُهم في الفضاء، كُسالى خالين من الفكر، كأنعامهم التي يحرسونها.

وإذ كان بنو إسرائيل متمردين على الفنون تمردًا مطلقًا، ولم يكن لهم غير مَيْل هزيل إلى حياة المدن، فإنهم لم يُقيموا معابدَ وقصورًا إلا عن غرور. **والذي كان بنو إسرائيل يفضلونه، بعد الذبح والتقتيل، هو "السكون تحت شجر العنب والتين"**، على حسب تعبيرهم[٧٨].

وعِيد المَظال هو أجمل أعيادهم. وفي هذا العيد الذي يدوم ثمانية أيام، كانوا يغادرون بيوتهم، ليعيشوا في ملاجئ مرتجلة، مذكرة بحياة البادية[٧٩].

---

[٧٦] إرمياء ٤-٥: ٣١.
[٧٧] إرمياء ١٢: ٣١.
[٧٨] الملوك الأول ٤:٢٥.
[٧٩] عيد المظال: هي صيغة الجمع لكلمة مظلة. وعيد المظال ثالث أعياد الحج عند اليهود، إلى جانب عيد الفصح، وعيد الأسابيع. وقد سُمّي هذا العيد على مدى التاريخ بعدة أسماء من بينها «عيد السلام» و«عيد البهجة». وهو يبدأ في الخامس عشر من شهر أكتوبر. ومدته سبعة أيام، بعد عيد يوم الغفران. والمناسبة التاريخية لهذا العيد، هي إحياء ذكرى خيمة السعف، التي آوت العبرانيين في العراء، في أثناء الخروج من مصر (لاويين ٤٣/٢٣) (موسوعة اليهود واليهودية).

وإذا ما أريدتْ معرفةُ الإسرائيلي كما هو، وَجَبَ ألا يُحكمَ فيه بآثاره المكتوبة، التي ليس معظمها سوى ذكرياتٍ من كلدة[80]. بل يجب أن يُزال عنه أثرُ الحضارة الخفيف، الذي عانى كثيرًا في اقتباسه من الدول القوية، التي عاش فيها، وأن يُنظر إلى مكانه من خلال سفر التكوين مثلا، حيث وُصفتْ حياته المفضلة، حياة الرعاء[81]. أو أن يُبحث عنه في السكان الحاليين بالبقاع التي استولى عليها، وفي القبائل البدوية الصغيرة بشمال جزيرة العرب، وبسوريا، تلك القبائل التي لم تغير طبائعها وعاداتها منذ ستة آلاف سنة، أو ثمانية آلاف سنة.

ولم تكن فلسطين، أو أرض الميعاد، غيرَ بيئة مختلقة لبني إسرائيل. فالبادية كانت الموطن الحقيقي لبني إسرائيل. والبادية، لِما عليه من نمطية وسكون منظر، وحياة واحدة، وصلاح لأبسط الاحتياجات، قد وسَّعت روح الساميين وبَسَّطتْها، فألقت فيها الشعاع الخالد الهادئ لآفاق لا حَدَّ لها.

والبادية، يجعلها خيالُ الساميين عقيمًا عُقم ترابها، لاشتْ فيهم بذورَ مختلف الخرافات، التي استحوذتْ على النفس البشرية في أماكن أخرى، لمشابهتها النباتَ الخَطِرَ حتى يزَخَره[82].

والساميون، بما لديهم من مبادئ دينية، عاطلة من أية صورة محسوسة، ابتدعوا، بفضل البادية، الربَّ البعيدَ الجليل الأزلي، الذي لاحَ- فيما بعد- ذا صفاء خالص روحي؛ لتعذر تعريفه وتشخيصه، فبسط سلطانه على أمدن أمم

---

[80] كلدة: مدينة كانت تقع في أقصى جنوب دلتا وادي دجلة والفرات. كانت موطن الشعب الكلداني الذي أخذ في الهيمنة على المنطقة ابتداءً من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، إلى أن قام- في القرن السابع قبل الميلاد بمساعدة الحوريين (مملكة ميتاني)- بإسقاط حكم الآشوريين، وتأسيس الإمبراطورية البابلية الحديثة (الكلدانية)، التي انصهر فيها البابليون، والآراميون، والكلدانيون. ومن أهم ملوك هذه الإمبراطورية نبوبولاسار (٦٢٥ ق.م)، ونبوختنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، الذي أسّس إمبراطورية ضخمة، تمتد من آشور حتى الحدود المصرية، وقضى على المملكة الجنوبية، وهجَّر سكانها إلى بابل. وقد سقطت الأسرة الكلدانية على يد قورش الثاني الفارسي، في عام ٥٩٩ ق.م (موسوعة اليهود واليهودية).

[81] التكوين (٣٧:٢) "هذه مواليد يعقوب: يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة، كان يرعى مع إخوته الغنم، وهو غلام عند بني بلهة، وبني زلفة، امرأتي أبيه".

[82] زَخَرَه: زَخَرَ النباتُ طال، وإذا التف النبات، وخرج زهره (لسان العرب ٣٢٠/٤).

العالم[٨٣].

والإسرائيلي قد خسر- ذات مرة- ذلك الربَّ، بازدحام خرافات مصر وآسيا فيه. بَيْدَ أن أنبياءَه آذنوه، فغدا أولادُ يعقوب قادرين على هداية الناس إلى إيمانهم، بردهم إلى عَنْعَناتهم السامية الخالصة[٨٤].

[٨٣] لا شك أن الله ﷻ أرسل رسله وأنبياءه في هذه الأمم؛ لهدايتهم إلى معرفة الله؛ وهدايتهم إلى معرفة الطريق إلى الله. كما قال الله سبحانه: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر: ٢٤].

[٨٤] الكاتب يسخر هنا من بني إسرائيل. ولكن الإنصاف يقتضي أن نفرق بين من آمن منهم وبين من كفر من بعد بين الحق لهم. كما قال سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [الجاثية: ١٦-١٧].

٣- تاريخ اليهود

لا يبدأ تاريخ اليهود بالحقيقة، إلا في عهد ملوكهم.

كان بنو إسرائيل أقلَّ مِن أمَّة، حتى زمن شاوُل. كانوا أخلاطًا من عصابات جامحة. كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل ساميَّة صغيرة، أفاقة بدويَّة، تقوم حياتها على الغزو والفتح، والجَذب وانتهاب القرى الصغيرة، حيث تقضي عيشًا رغيدًا دفعة واحدة في بضعة أيام. فإذا مضت هذه الأيام القليلة، عادت إلى حياة التيه والبؤس.

وتكوَّنت زُمْرَة بني إسرائيل السامية كجميع العشائر. فكانت مؤلفة في بدء الأمر من أسرة واحدة، ذات جَدٍّ واحد. وهذا الجَدُّ كان يُدعَى لدى بني إسرائيل بيعقوب، أو إسرائيل. وإسرائيل هذا هو من ذرية إبراهيم. وإبراهيم هذا، كان أولَ مَن هَجَرَ كَلْدَة مِن عِرْقه طلبًا للرزق.

وهنالك عدد غير قليل من الأقوام الصغيرة، كالأدوميين[٨٥]، والعمونيين[٨٦]،

---

[٨٥] الأدوميون: هم سكان أرض أدوم. وآدوم الاسم القديم للبلاد التي تقع في جنوب الأردن، وحتى خليج العقبة في حقبة الألف الثانية قبل الميلاد. وهناك لمحات تاريخية تؤكد على عروبة "الأدوميين"، وأنهم بدو ساميون. ثم إن قربهم من جزيرة العرب- مصدر الهجرات السامية- جعلهم على صلة بالعناصر العربية الأصيلة. بالإضافة إلى أن أسماء ملوكهم توحي بعروبتهم. مثل جابر. كما أن زوجة عيسو- التي ينتسب إليها الأدوميون، هي بسمة. وكذلك النبي أيوب- عليه السلام- وزوجته رحمة وغيرهم. وقد اشتهرت آدوم بحكمائها. وقد كان أليفاز التيماني- أكثر أصحاب أيوب حكمة- آدوميًا.

[٨٦] العمونيون: سكن العمونيون الأردن سنة ١٢٥٠ ق. م. حيث عاشوا حياة البداوة، وكوَّنوا دولة قوية، امتدت حدودها من الموجب جنوبًا، إلى سيل الزرقاء شمالاً. ومن الصحراء شرقًا، إلى نهر الأردن غربًا. وكانت عمان عاصمة مملكتهم. وبحكم موقع عمان الجغرافي الاستراتيجي، طمع فيها الغزاة، فتعرَّضت مملكة العمونيين للغزو والدمار، لكنها كانت تضمد جراحها، وتعيد بناء مدنها.

والإسماعيليين[٨٧]، يرجعون أصلهم إلى إبراهيم. ويزعم العبريون أنهم وحدهم ذرية إبراهيم الشرعيون، مع اعترافهم بقرابة الآخرين لهم[٨٨]!

ولم يقعْ انقسامٌ في الأسرة الرئيسية بعد يعقوب، الملقب بإسرائيل، فسُمِيَ أعضاءُ هذه الأسرة ببني إسرائيل لذلك السبب.

ودَفعَ القحطُ يعقوب وبنيه إلى دخول مصر، في عهد الملوك الرُّعاة. فأقاموا بالدلتا، وكثُرَ عددُهُم. واستعبَدَهم المصريون، فسَئِمَ أبناؤهم بؤسَهم، فاغتنموا فرصة فتنٍ اشتعلت، ففرُّوا من بلاد العبودية بعد عهد سيزوستريس الكبير بزمن قليل.

ولحِقَ ببني إسرائيل عددٌ من المصريين الساخطين، ومن الأسارى، ومن العبيد المتمردين. ولمّا جاوزَ بنو إسرائيلَ بحرَ القلزُم[٨٩]، بَدَوْا عشيرةً، أي جماعة مُصيرّة على الظهور بأنها نسلُ رجلٍ واحد، وإن كانت فاتحةً صفوفها بالحقيقة لجميع الفُرّار، المستعدين لانتحال اسمها وتقاليدها، ومعبوداتها الأهلية.

وفي البَدَاءة، وَجَدَ بنو إسرائيل حياة البداوة التي أضاعوا عاداتِها قاسية، فثاروا على الزعيم الذي اختاروه غيرَ مرة.

[عصر موسى:]

وكان هذا الزعيم- الذي تدعوه القصة بموسى، وهو الذي لا نعرف اسمه

---

[٨٧] الإسماعيليون: المراد بهم العرب المستعربة، أبناء إسماعيل بن إبراهيم- عليهما السلام.

[٨٨] العجيب أن هذا الزعم انتقل إلى النصارى، مخالفة للحقيقة التاريخية. وزعموا أن إبراهيم حين أمر بذبح ابنه بكره وحيده انه كان إسحق، مع ان التوراة تذكر أن إبراهيم رُزق بإسماعيل قبل إسحق. ففي سفر التكوين (١٦:١٦) "وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لمّا ولدت هاجر إسماعيل لإبرام". وفي التكوين أيضًا (٢١:٥) "وكان إبراهيم ابن مئة سنة، حين وُلد له اسحق ابنه". والعجيب ان يقول سفر التكوين (٢٢:٢) عقب ذلك: "فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق، واذهب إلى أرض المريّا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال، الذي أقول لك". أما العهد الجديد، كتاب النصارى فقال ما يوافق ذلك (عبرانيين ١١:١٧): "بالإيمان قدّم إبراهيم إسحق وهو مجرب. قدّم الذي قبل المواعيد وحيدَه". وفي الإنجيل، أن بني إسرائيل قالوا لعيسى ﷺ (يوحنا ٨:٣٩): "اجابوا وقالوا له: أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.
٨:٤٠ ولكنكم الآن تطلبون ان تقتلوني، وانا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم"!

[٨٩] بحرَ القلزم: هو البحر الأحمر.

الحقيقي على ما يُحتملُ- مِن المهارة ما حَمَلهم به على الإيمان بأنه ذو صلة بالسماء، فيأتيهم بالأوامر من إلهٍ خاص، من إلهِ قبيلتهم[٩٠]؛ وذلك ردًّا لهم إلى النظام. واهتبَلَ موسى فرصة هبوب أعاصيرَ هائلة فوق سيناء وعلى جوانبه، فألقى في رُوْع عصابة العبيد تلك هَوْلا شافيًا، ما دامت سماء مصر الصافية، وآفاقها المبسوطة لا عهدَ لها بما تعرفُه البلاد الجبلية من العوارض الطبيعية[٩١].

وجزيرة سيناء، إذ كانت بالحقيقة فقيرة جديبة إلى الغاية، لم تصلح لإعاشة أهل البدو أيضًا، فتوجه بنو إسرائيل إلى الشمال، وحاولوا دخول أراضي الشعوب الكنعانية الصغيرة، وهُمْ لمَّا دَنَوْا من هذه الأراضي، بَهَرَهُم خصبُها، فاشتعلت نيرانُ الحسد في قلوبهم.

وتلك هي حالُ غِنَى البلاد المجاورة للأردن في ذلك الحين. ولم تلبث قبائل الرُّعاة التائهة، التي خرجتْ من جزيرة العرب طلبًا للمراعي، أن استقرت بها، تاركة طبائعها الرعائية؛ لتكونَ زُمَرًا زراعية.

وعانى العِبريون مثلَ هذا التطور، فتحَوَّلوا من أناس بَدَويين، إلى أناس حَضَريين، عندما رَسَخَتْ أقدامُهم في تلك الأراضي التي كانت مَحَط أحلامهم، في أرض الميعاد، تلك التي طمعوا فيها غلاظًا مدة طويلة.

ولم يكن هنالك فتحٌ بالمعنى الصحيح، على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخًا؛ ومِن تِعداد الانتصارات، وتقتيل الأهالي، وانهيار أسوار أريحا بالنقر في النواقير[٩٢]، ووقف يوشع للشمس إمعانًا في الذبح[٩٣].

---

[٩٠] الإسلام هو الذي قرر وأكد وجود موسى ونبوته، على الرغم من العداوة الظاهرة بين المسلمين واليهود. قال الله سبحانه: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [القصص: ٣٠].

[٩١] الخروج (١٦:١٩) "وحدث في اليوم الثالث، لمَّا كان الصباح، أنه صارت رعود وبروق، وسحاب ثقيل على الجبل، وصوت بوق شديد جدًّا. فارتعد كلُّ الشعب الذي في المحلة. ١٧ وأخرج موسى الشعب من المحلة؛ لملاقاة الله. فوقفوا في أسفل الجبل. ١٨ وكان جبل سيناء كله يدخن من اجل أن الرب نزل عليه بالنار. وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جدا. ١٩ فكان صوت البوق يزداد اشتدادًا جدًّا، وموسى يتكلم، والله يجيبه بصوت".

[٩٢] يشوع (٢٠:٦) "فهتفَ الشعب، وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق، ان الشعب هتف هتافا عظيمًا؛ فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجل مع وجهه،

أجَلْ. فُتِحَ الضِّياع عَنْوَة؛ ويُفسِّر انقسامُ العشائر الكنعانية الكبيرُ حقيقة النجاح الذي ناله بنو إسرائيل، القليلو الذوق، والضعيفو الأهلية للحرب، والسيئو السلاح؛ غير أن استقرار العبريين بفلسطين، تمَّ بالتدريج على ما نرى؛ **فالعبريون قضوا زمنًا طويلا، ليكون لهم سلطان ضئيل في فلسطين، لا أن يكونوا سادتها.**

والعبريون؛ إذ كانوا منقسمين كالكنعانيين إلى عِدَّة عشائر، تُسَمَّى أهمُها بأبناء يعقوب، رمزًا إلى الأسباط؛ لم يتفقوا فيما بينهم حتى على إكمال الفتح.

[عصر القضاة]:

ومضى جميعُ دَوْر القضاة، الذي عُدَّ دَوْرَ بطولة العبريين التاريخيَّ في القتال الجزئيِّ بجماعات صغيرة؛ وذلك بأن تدافع كلُّ جماعة بمشقة عمَّا استولت عليه من قطعة أرض.

وذلك النوع من القتال بين الزرَّاع والرُّعاة، وبين الحضَريين والبَدَويين، مما هو معروفٌ جيدًا؛ وهو لا يزال يحدثُ اليوم في سوريا والجزائر، وفي كل مكان تتجلى فيه طبائعُ الساميين، التي لم يقدرْ الزمنُ على تغييرها.

ومما يقع أحيانًا، أن يكتفيَ البَدويُّ بغزو البلاد الزراعية. فإذا ما أنزل ضربته، وحَمَّل خيله وجماله ما غنِمه، لاذ بالفرار، وأوْغَلَ في الصحراء، وتوارى فيها. ولكنَّ الذي يقع- في الغالب- هو أن يميل إلى حياة الزُرَّاع المطمئنة المنتظمة، فينساب بينهم، ويُقيم عندهم قهرًا. فإذا مضى دورُ الخصام، رَضِيَ به جيرانه، واختلط بهم.

ولم يكن غيرَ غزو بني إسرائيل لفلسطين، وذلك مع الفارق القائل: إن عدد بني إسرائيل واحتياجاتهم، وبؤسَهم في مصر، وحرمانَهم الهائل في التيه- مما

وأخذوا المدينة".

[٩٣] يشوع "١٢:١٠ حينئذ، كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل. وقال أمام عيون إسرائيل: يا شمس١ دومي على جبعون، ويا قمر على وادي ايلون! ١٣ فدامت الشمس، ووقف القمر؛ حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوبًا في سفر ياشر. فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل".

جَمَعَ بينهم وأقنطهم، فصاروا كقطيع من الذئاب الهزيلة، التي دفعها الجوع إلى الاقتراب حتى من المدن.

تمَّ خروجُ بني إسرائيل قبل الميلاد بنحو خمسة عشر قرنًا تقريبًا. وهُمْ لم يُفكروا في تأليف أمَّة واحدة منهم، ونَصْب ملك عليهم، إلا في أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد[٩٤].

والواقع: أن فتح فلسطين في عهد شاوُل كان بعيدًا من التمام. وفي فلسطين كان يعيش اليَبوسيُّون[٩٥]، والعَمُّونيون[٩٦]، وطائفة من الأمم الصغيرة، بجانب بني إسرائيل. وكان السلطان في فلسطين للفلسطينيين، العِرْق الوحيد الذي هو آري على ما يُحتمَل[٩٧]. فاجتمعت الأسباط تحت لواء زعيم واحد للمرة الأولى منذ دخول بلاد كنعان، وذلك لكيلا تُسحَق.

والحق: أنك لا تجدُ قاضيًا، استطاع أن يبْسُط سلطانه على جميع بني إسرائيل. فكلُّ واحد من هؤلاء الحكام، أو الشيوخ، كان يَتسلم قيادة زُمْرة واحدة، عندما تُهدَّد هذه الزمْرة تهديدًا مباشرًا. وهو إذا ما كُتب له النصر، لم يحتفظ حتى بتلك القيادة.

وقد استمر الأمر على هذه الصورة، أي من غير تبديل، مدةَ أربعة قرون.

وحوادث تافهة كتلك، لا يُعْنَى بها التاريخ. والتاريخ إذا ما عُنِي بها، كان ذلك لأسباب مستقلة عن أهميتها. ومن ذلك أن حصار عصابة من البرابرة لمدينة

---

[٩٤] في سنة ١٠٢٠ق.م، اتحدت القبائل العبرانية بقيادة شاءول، أول ملوكهم (١٠٢٠-١٠٠٤). ولم تكن صلاحياته تتخطى القيادة العسكرية. وانتحر بعد هزيمته. كما في سفر صموئيل الأول (١١:١٥): "فذهب كل الشعب إلى الجلجال، وملكوا هناك شاول أمام الرب في الجلجال، وذبحوا هناك ذبائح سلامة أمام الرب، وفرح هناك شاول وجميع رجال إسرائيل جدًا".

[٩٥] اليَبوسيُّون: بناة القدس الأولون. هم بطن من بطون العرب الأوائل، نشئوا في قلب الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية التي ينتمون إليها. إنهم أول من سكن القدس، وبنى فيها لبنة. وقد ظهر بينهم ملوك عظماء، بنوا القلاع، وأنشئوا الحصون، وجعلوا حولها الأسوار. ومن ملوكهم الذين حفظ التاريخ أسماءهم (ملكي صادق). ويعد مؤسس يبوس. وكانت له سلطة على من جاوره من الملوك، حيث أطلق بنو قومه عليه لقب "كاهن الرب الأعظم". (islamonline.net).

[٩٦] في الأصل: العصمونيون. والصحيح ما أثبتُ.

[٩٧] أصل الفلسطينيين من بلاد العرب، وليس من بلاد اليونان- كما سبق أن ذكرنا.

تروادة[98] الصغيرة، واستيلاءهم عليها قبل الميلاد باثني عشر قرنًا، مما غَدَا حادثًا ذا بال في تاريخ العالم؛ لأن أُومِيرُس[99] تغنى به، لا من أجل نتائجه[100].

ثم أنعَمَ سرابُ الخيال النصرانيّ بعظمةٍ أكبرَ من تلك، على منازعات هزيلة، كانت تقع منذ أكثرَ من ثلاثة آلاف سنة، بين عشائر صغيرة من البَدَويين النهّابين، في سبيل وادٍ يكون خصيبًا بأحد الجداول.

وما أتى به مؤرخو اليهود، من تدوين لتلك الحوادث عقب وقوعها، مع تجسيم عظيم، هو دون ما صنعته الكنيسة النصرانية بعد ذلك.

ومَن يَقرأ سِفر صموئيل[101]، وسفر القضاة[102]، بشيء من رُوح النقد، يُبْصِرُ دَوْرَ العَنَت الذي جاوزه بنو إسرائيل في استقرارهم بفلسطين. **غير أن هذه الأقاصيص نفسها، إذا ما نُظِرَ إليها من خلال أبْخِرة الحماسة الدينية، ألقتْ في النفوس وَهْمًا قائلا: إن ذلك الفتح ساطعٌ معجز.**

وبشاوُل بدأ بنو إسرائيل يؤلفون أمّة، فاستحقوا أن تُفتح لهم صفحةٌ صغيرة عن التاريخ الحقيقي، الذي كان لهم في العالم.

أنقذهم ملكُهم الأوّل ذلك، من هَوْل الفلسطينيين الدائم، بأن أنزل على هؤلاء الأجانب ضربات هائلة[103].

---

[98] تروادة: تقع مدينة طروادة في آسيا الصغرى، وهي مدينة بحرية غنية.

[99] أومِيرُس: هوميروس (Homer)، شاعر إغريقي شهير. وهو كاتب الملحمتين: الإلياذة، والأوديسا. قام بتخليد حرب طروادة شعرًا. وهي الملحمة التي يعتقد حدوثها سنة ١٢٥٠ ق.م.

[100] حصار طروادة: حرب طروادة، كانت بين الإغريق- الذين حاصروا مدينة طروادة- وأهلها، ودامت عشر سنين. وتعد واحدةً من أشهر الحروب في التاريخ؛ وذلك لخلودها في ملحمتي هوميروس: الإلياذة، والأوديسة، اللتين تحدثتا عن بعض أحداث حرب طروادة (ويكيبديا- الموسوعة الحرة).

[101] سفر صموئيل الأول. هو تاسع أسفار العهد القديم. يسجل قصة ثلاثة رجال: صموئيل أخر قاضٍ من قضاة إسرائيل، وشاول أول ملك يتولى الملك في إسرائيل، وداود أعظم ملك حكم هذه الأمة.

[102] سفر القضاة هو سابع أسفار العهد القديم. يوضح تقصير إسرائيل عن امتلاك الأرض كلها، ثم عجزهم عن إبقاء ما امتلكوه منها تحت سلطانهم، ثم ابتعادهم عن الرب، وانحطاطهم إلي عبادة الأصنام، وتعبدهم للكنعانيين قصاصًا لهم.

[103] صموئيل الأول (١٤:٣٦) "وقال شاول: لننزل وراء الفلسطينيين ليلا، وننهبهم إلى ضوء الصباح، ولا نبق منهم أحدا. فقالوا: افعل كل ما يحسن في عينيك".

[عصر داود]:

وكان خليفته داود صورة تاريخية طريفة إلى الغاية. فأشْبَهُه، مختارًا، ببَابَرَ المُغُوليّ[104]. مع أنه لا يُساوي بَابَرَ هذا، الذي كان في مقتبل عمره رئيسًا لقرية، فافتَتَحَ شمالَ الهندوستان، مُبْدِيًا إقدامًا قاتلا، معذبًا الألوف من البشر. بابَر ذلك كان شاعرًا أديبًا- مع همجيته.

وأمثلة كتلك، لا تجدُها إلا في الشرق، تحت تلك الشمس المُحرقة، التي تقتطع من الطبيعة محاصيل عظيمة، وتنبت أضخم الأشجار، وأجْسَمَ الحيوانات، وأقوى الأبطال. وأمَّا في غَرْبنا، فترى المُتَغلبين والطامعين ذوي نفوسٍ أكثرَ عنفًا، وأشدَّ اتزانًا، فلا يُقايضون سيفهم الدامي طائعين بالمِزْهَر[105]، ولا يُخافتون بصوتهم- الذي خُلِق للقيادة، في سبيل وزْنٍ لين للأشعار.

ويُعْوزنا أن يُشابه داودُ الملكَ المتعطش إلى العدل، المختنِق بشهيق التوبة، الأوّاب في مزامير الاستغفار، التي حفظتها الرواية لنا[106].

ومما نعرفه، أن داود كان مُرَتلا شاعرًا، ولكنك إذا عدوتَ رثاءه لشاوُل، ويوناثان، اللذين ماتا وهما يقاتلان الفلسطينيين فوق جبال جِلبُوع[107]، وجدتنا نجهل ما وَضَعَه من النشائد. وفي المزامير قليل جدًا من الذي صنعه منها- كما نرى[108].

ومعرفتنا لداود المحارب أحسن من تلك. وآية مجده في منحه بني إسرائيل

---

[104] بَابَرَ المُغُوليّ: اسمه ظهير الدين محمد بابر (١٤٨٣- ١٥٣٠م). امبراطور مسلم، مِنْ آسيَا الوسطى. أسّسَ الامبراطورية المغولية في الهند. كانَ ينتمي إلى سلالة تيمور. ويعتقد بأنه من نفس سلالة جنكيز خان من خلال أمّه. اكتسبت قبيلته ثقافة تركية وفارسية، ثم اعتنقت الإسلام.

[105] المِزْهَر: العود الذي يُضرب به (مختار الصحاح، ص٢٨٠).

[106] المزامير "١٨:٦ في ضيقي دعوت الرب، وإلى إلهي صرخت. فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه".

[107] صموئيل الثاني "١:١١ فأمسك داود ثيابه ومزقها. وكذا جميع الرجال الذين معه. ١٢ وندبوا وبكوا، وصاموا إلى المساء على شاول، وعلى يوناثان ابنه، وعلى شعب الرب، وعلى بيت إسرائيل؛ لأنهم سقطوا بالسيف".

[108] من المزامير ما هو مجهول المؤلف. كالمزامير من ٩٠ إلى ١٠٦. وأما المزامير من ٧٣ إلى ٨٩ فتخص عساف، وقورح.

عاصمة، وفي حسن اختياره لهذه العاصمة، فلولا أُورَشَلِيمُ "القدس"، لكان شأنُ اليهود ضئيلا إلى الغاية. وأورَشَليم أضحَتْ رأسَ بني إسرائيلَ وقلبَهم. وأورَشليمُ أوْجٌ، وأورَشليم رمْزٌ، وأورشليم لا تزال تلقي أشعتها على العالم من خلال ماضيها، مع إكليلٍ نسجته حماسة ملايين البشر، وإيمانهم وأوهامهم- لا ريب، ولكن لا جدال في نور هذا الإكليل.

وأيُّ اسمٍ كُرِرَ- مع التمجيد والولوع- أكثرَ من اسم تلك المدينة الدينية؟! لا تزال مقاطع ذلك الاسم السحرية، تجري على شفاهنا القليلة التصديق، بحلاوة تأخذ بمجامع قلوبنا، فتنقلنا إلى خيالٍ رائع بعيد المدى. ولن تنسى الإنسانية من فورها أن توجِّه أنظارها إلى تلك المدينة الإلهية. حتى إن الإنسان اليَقِظ إذا صارَ لا يبحث عن نجاته فوق الجبل، الذي هو مَحلُّ رمْزه العظيم- فتَنَهُ هذا الجبل[١٠٩] بسحر ذكرياته!

وداود، لكي يُنْعِمَ على قومه بتلك العاصمة، الواقعة في أصلح مكان، وأسهل محل للدفاع عن فلسطين، اضطر إلى طرد اليبوسيين، سادة جبل صَهْيُون. ولم يكن اليبوسيون وحدهم، هُمُ الأعداء الذين وَجَبَ على داود أن يقهرَهم، فقد أظهر داود في عهده من النشاط الكبير ما أقام به الوحدة اليهودية، جاعلا المملكة العبرية الصغيرة، على رأس جميع الأمم التي كانت تقتسم سوريا.

قال مسيو رينان، في صفحة ممتعة من كتابه "تاريخ بني إسرائيل":

"إنَّ داود هو مؤسس القدس، وهو أبو الأسرة التي أسهمت في عمل بني إسرائيل إسهامًا وثيقًا. وهذا ما دَلَّ الأقاصيصُ القادمة عليه. وليس مما يمضي بلا عقابٍ، أن تُمَسَّ- ولو على وجه غير مباشر- عظائمُ الأمور التي تَنْضجُ في سر البشرية".

---

[١٠٩] جبل صهيون: اسم تل في القدس. وقد استُخدم الاسم، في بداية الأمر، للإشارة إلى قلعة اليبوسيين جنوب شرقي القدس. وقد سُمِّيت «بيت داود»، بعد أن وقعت في يد داود. ومع القرن الأول الميلادي، أصبح الموضع الحالي، الذي يوجد جنوب غربي مدينة القدس، والذي يُشار إليه باعتباره جبل صهيون، مع أن معظم العلماء يرون أنه لا يمثل موضع جبل صهيون الأصلي (موسوعة اليهود واليهودية).

"وسنشاهد تلك التحولات بين قرن وقرن، فنرى أن لصٌ عَدلامَ وصِقلَغ، يكتسب بالتدريج أوضاع القديس، فيكون واضعَ المزامير، والممثل المقدس، ومثال المنقذ المقبل، ويغدو يسوعُ ابنًا لداود، وتبلغ التراجم الإنجيلية من البُهتان- في طائفة من الأمور- ما تجعلُ معه حياةَ المسيح نسخةً عن مقومات حياة داود! ألا إن الأتقياء حين يُسرون بالمشاعر المملوءة تسليمًا وحسرة في أجمل الكتب الدينية، يعتقدون اتصالهم بذلك اللص. ألا إن البشرية تؤمن بالعدل النهائي في شهادة داود مما لم يصدر عن داود... فيا للرواية الإلهية الهزلية!"[110].

[عصر سليمان]:

واقتطف سليمانُ بن داود أثمارَ ما أبداه أبوه من نشاطٍ ضار. وفي عهد سليمان، بلغَ مصيرُ الشعب اليهودي ذروته. فلما مات سليمان، دخل هذا الشعب دور الانقسامات والفوضى.

والملك سليمان، الذي عاش حاكمًا شرقيًا حقيقيًا، بكثرة آلهته[111]، وبدائرة حريمه المشتملة على مئات النساء[112]، وبثيابه الزاهية، وبقصوره وبحرسه الأجنبي[113]، اتفق له في خيال الناس من التَحَوّل، ما لا يقل عما اتفق لأبيه من غفران وتطهير[114].

---

[110] ورد ذكر نبي الله داود عليه السلام في القرآن الكريم ست عشرة مرة مبجلا مكرمًا. منها قول الله ﷻ: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) [النمل: ١٥]. وقوله: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: ١٧]. وقوله أيضًا: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) [سبأ: ١٠].

[111] الملوك الأول "١١:٤ وكان في زمان شيخوخة سليمان، أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. ٥ فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. ٦ وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه. ٧ حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين، على الجبل الذي تجاه أورشليم. ولمولك رجس بني عمون".

[112] الملوك الأول "١١:٣ وكانت له سبعمئة من النساء السيدات، وثلاثمئة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه".

[113] الملوك الأول ٨:٧. و٢١:١٠. و١:١١.

[114] لقد كانت شخصية النبي سليمان مثار جدل بين آباء الكنيسة. فمنهم من نادى بخلاصه، ومنهم من أنكر عليه ذلك؛ لما ذهب إليه من الذهاب وراء زوجاته الكثيرة، والتبخير لآلهتهم. طبقا لما ورد

والملك سليمان شادَ الهيكل عن زَهْوٍ، لا عن زُهد. وذلك تقليدًا لأبّهة ملوك مصر وآشور، واستنساخًا لطُرُزهما البنائيّة[115].

وانهمك سليمان فيما لا عهد لأسباط بني إسرائيل الجِلْفةِ[116] به من ضروب الملاذ الآسيوية، فلمْ يُفكرْ في غير التمتع بعملِ داودَ، تَمَتُّعَ ذي أثرة، فأثقل كاهل الشعب بالضرائب؛ ليقوم بنفقات شهواته، مُعِدًا بذلك مُقبل الفتن[117].

ومع ذلك، جُعِلَ مِن سليمانَ: ذلك الرجلُ، المرتابُ النبيهُ، المتكلمُ في سفر الجامعة. وأُغمِضتْ العيونُ عن عيوبه، تفكيرًا في شبابه، حيث تقول القصة: إن الربَّ خاطبه رأسًا، مُبْصِرًا إيّاه نقي اليدين، خليقًا بأن يَبني هيكله[118].

وكان سليمان ماهرًا في ربط شعبه بروابط المحالفات، فصار ملكُ مصر صديقًا له، مزوِّجًا إياه من إحدى بناته[119]. وارتبط فيه مَلِك صُورَ حِيْرام بصِلات الصداقة والتجارة[120]. وفي القصة: أن ملكة سبأ أتت من أقاصي جزيرة العرب، حاملة له بعض الهدايا، مختبرة علمه وحكمته ببعض الأسئلة[121].

وامتدت مملكة إسرائيل، إذ ذاك، من دمشق إلى مصر، ومن البحر المتوسط إلى حدٍ بعيد من البادية الشرقية[122].

عندهم في العهد القديم. أما القرآن الكريم، فقد ورد سليمان فيه سبع عشرة مرة، كلها تكريم له، باعتباره أحد رسل الله. منها قول الله سبحانه: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) [الأنبياء: ٨١]. وقوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) [النمل: ١٥]. وقوله أيضًا: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) [النمل: ١٦].وقوله أيضًا: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: ٣٠].

[115] الملوك الأول ٢١:٦.

[116] الجِلفُ بالكسر: الرَّجُلُ الجَافِي. وقد جَلِفَ كفرحَ جَلفًا وجَلافةً. والجِلفُ: الجَافِي في خَلقِهِ وخُلقِه. شُبِّهَ بجِلفِ الشَّاةِ، أي أنَّ جَوْفَهُ هَوَاءٌ، ولا عَقلَ فيه. والجَمْعُ أجلافٌ (تاج العروس، مج١، ص ٥٧٥).

[117] الملوك الأول ١٣:٥.

[118] الملوك الأول ٥-١٢: ٣. وفي النص أنه حلم حلمه سليمان ليلا.

[119] الملوك الأول ١:٣.

[120] الملوك الأول ١:٥.

[121] الملوك الأول ١:١٠.

[122] الملوك الأول ٢١:٤.

وإذا كان سليمان لم يَشْهَرْ حربًا، افتتح أراضي كثيرة متغلبًا على الرمال، وذلك بأن وسَّع رُقعة الأراضي الصالحة للزراعة، وبأن شادَ مدينة تَدْمُر الرائعة، في مكان يلوح لنا اليوم أنه غير نافع للسكن، غير أن مصير تلك المدينة كان مؤقتًا كما يظهر، فمركز كبير للسكان كذلك المركز، لا يمكن أن يدوم في سواء البادية، بعيدًا من مجاري المياه المهمة، إلا بمعجزات الصناعة والعمل. فلما مات سليمان، نهكت الفتن الأهلية بني إسرائيل، فهجرت تلك المدينة الشرقية، إلى أن استولى عليها الرومان، وجَدَّدوا بناءها. واليوم ترى أعمدة تلك المدينة قائمة في اعتزال، فيقضي السائح منها العَجَب، ممتلئة نفسُه بغمٍ غريب.

ولا يزال اسما سليمان وتَدْمُر الكبيران يَبْهران الفكر، لِمَا يبدو من سطوعهما في تاريخ بني إسرائيل الكئيب. والمرء إذا ما صَدَفَ عنهما، لم يُبصر غير هوة مظلمة دامية، تُزْلَقُ فيها هاوية بما يُثيرُ الحزنَ تلك المملكةُ الصغيرة التي مَنَّ عليها داود وابنه بعظمة مدة سنوات قليلة.

ولبضعة قرون، تحافظ أُورَشَليم، حيث يملك آل داود، على شيء من التفوق الأدبي، فتكون مركزًا ثقافيًا لفلسطين، وذلك بأن غدا الكهنة يؤلفون الأقاصيص، وبأن صار عظماء الأنبياء يُسْمعون أصواتهم مُجِدِّين مع أولئك، على غير جَدْوى، في إعادة وحدة بني إسرائيل، بوحدة تقاليدهم ودينهم.

[عصر يَرُبْعام]:

وأما مملكة الأسباط العشرة، التي أقامها يَرُبْعام، متخذًا شكيم "نابلس"، ثم السامرة "سَبَسْطية" عاصمة لها، فقد كانت مسرحًا لأفظع الفجائع. وما كان يقع فيها من اغتصاب، ومذابح، واستعانة بالأجنبي، فقد أثار ازدراء الأمم المجاورة دومًا، فلم تنفك هذه الأمم، تطالب بإبادة بؤرة الفوضى والتمرد تلك.

وتحل سنة (٧٢١) قبل الميلاد، فيهدمُ ملكُ نِينَوَى، سَرْجُونُ[١٢٣]، مملكة

[١٢٣] سرجون الثاني (٧٢١- ٧٠٥ ق.م): هو شاروكين ملك آشور. استولى على العرش بعد موت شلمانصر، وذلك أثناء حصاره السامرة، فأتم الحملة بنجاح، وهجَّر سكانها. وقد هَزم عام ٧٢٠ ق.م

السامرة، وتحافظ مملكة أورشليم، وهي أصغر من تلك بمراحل، على قليل من النظام والكرامة والنفوذ، نحو قرن ونصف قرن بعد تلك. على أن مملكة أورشليم تلك، مَدينة في بقائها المؤقت هذا، للثورات التي كانت تقلبُ كبريات دول آسيا، فكان من نتائج سقوط نينوى، تأخير سقوط أورشليم.

بَيْدَ أن ملوك اليهودية، أثاروا غضب نَبُوخَذْ نُصَرَ بمحالفتهم لفرعون مصر، فاستولى ملك بابل القوي على أورشليم في سنة (٥٨٦ ق.م). فجعل عاليها سافلها، وهَدَمَ هيكلها، وجعل من اليهود أسارى، فغدت أورشليم أثرًا بعد عين.

ومِن العبَث: أن أصدَرَ كورشُ[١٢٤] مرسومًا، أذن فيه للعبريين في العودة إلى فلسطين، وإعادة بناء مدينتهم وهيكلهم. فهمْ لم يُجَدِّدوا بناءَ أورَشَليم إلا مرتجفين، مهدَّدِين من قِبَل ملوك فارس، الذين كانت تساورهم الرِّيَبُ حولَ كل حَجَر يضاف إلى الأسوار، آمرين قُساةً بوقف العمل في غير مرة، مستمعين في ذلك لتقارير كاذبة.

والواقع أن استقلال اليهود، لم يكن غيرَ اسميٍّ بعد ذلك، وما فَتِئَ الفرسُ والأغارقة والرومان، يبسطون سلطانهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة، فتتَمَيَّز هذه المملكة غيظًا من هذا الاستعباد المتصل، فلا تجدُ ما تتعزَّى به عن عجْزها، سوى إلقاء فارغ الخُطب.

وما كانت الأحلام العظيمة، التي صدرت عن أنبيائها، وهم الذين لم يستطيعوا أن يَمُنوا عليها بالوطنية، ولا بالنشاط، ولا بالرُّكون إلى مصيرها، لتؤديَ إلى غير إسكارها في خزيها وبؤسها، والى غير زيادة انتفاخها كأمَّة سُحِقتْ ودُقت[١٢٥].

تحالفًا عسكريًا من بقايا المملكة الشمالية. وبعد اغتياله، خلفه سناخريب على العرش.

[١٢٤] كورشُ (٥٤٦-٥٣٠ ق.م): مؤسس الإمبراطورية الفارسية. فتح بابل، حيث وجد جماعة يهودية، يعود أصلها إلى سبي نبوختنصر عام ٥٨٦ ق.م. ويبدو أنها ساعدت على احتلال المدينة. ولقد سمح قورش لليهود بأن يعودوا إلى القدس، ليعيدوا بناء الهيكل. فأصدر عام ٥٣٨ ق.م، مرسومًا بإعادة اليهود الذين وُطنوا في بابل إلى فلسطين (موسوعة اليهود واليهودية).

[١٢٥] ضيع بني إسرائيل تكذيبهم لأنبيائهم، واتباعهم لأهوائهم. كما بين الله ﷻ في القرآن قال: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا

والشعب اليهودي، إذ كان على جانب كبير من الجبن العميق، عادَ لا يُنتظرُ نهوضُه بغير معجزة، وذلك على الرغم من إبدائه شيئًا من اندفاعات البطولة في دَوْر القضاة، وعهد داود، وحين مقاتلته اليائسة لبابل. وأوْجَبَ تفسيرُ أسفار كتبته الوطنيين والدينيين امتلاءَه أوهامًا عجيبة، وحَيَّرَتْ لهجتُه الفارغة دولة روما العظمى نفسها، فاقتصرتْ على احتقاره، مع أنها كانت تعلم قدرتها على سحق وكْر المتعصبين المشاغبين ذلك عند الضرورة. ولم تُعَتِّم فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج، وفساده وضوضاؤه، أن استنفدَ صبر تلك الدولة العظمى فعزمتْ على إبادته؛ لكيلا تسمع حديثًا عنه.

ففي سنة (٧٠) من الميلاد، استولى تِيْطُس[126] على أوْرَشَليم، وجعلها طُعْمَة للنيران، وبُدِئ بتشتيت شمل اليهود.

ولكن ذلك الشعب المتعصب، فيما كان يَخرُج من صَف الأمَم، وفيما كانت تذهب رِيْحُه، وفيما كان يُهَدُّ في طريق العالَم، حتى يُداسَ بازدراء تحت أقدام الشعوب في قرون كثيرة، وفيما كان يَقضي تلك الدقيقة الحرجَة من حياته، فتلوح أنها آخرُ دقائقه، إذ ظهَرَ منه ذلك المتهَوسُ الشهير، الذي سيسودُ اسمُه نحو ألفي سنة، إذ ظهر منه عاملٌ جليليٌ غامضُ الأمر، ليكون الإله المرهوب لدى أمدن شعوب الأرض[127].

جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أنفُسُكُمُ استَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) [البقرة: ٨٧].

[126] تيطس (٧٩-٨١): أحد أباطرة الرومان. وهو ابن فسبسيان. قاد القوات الرومانية في مقاطعة يهودا الرومانية في عام ٧٠م. فاستولى على القدس بعد حصار دام خمسة أشهر، اشتركت فيه إلى جانبه قوات يهودية بقيادة أجريبا الثاني. وبعد استيلائه على القدس، هدم تيتوس الهيكل.

[127] يقصد به المسيح عيسى ابن مريم- عليه السلام. والكاتب أقرب إلى أن تكون سخريته ممن الهوه.

الفصل الثاني

نظم العبريين
وطبائعهم وعاداتهم

ظل اليهود- حتى آخر مرحلة من تاريخهم- في أدنى درجة من الحضارة، قريبين من دَوْر التوحش الخالص.

ولم يجاوز اليهود طبائع أمم الزرّاع والرعاة إلا قليلا جدًا. وخضع اليهود لنظام رعائي، ولم يكادوا يدخلون دائرة التطور الاجتماعي.

وتوزيع الأعمال من العلائم التي تتجلى بها حال الحضارة لدى أحد الشعوب. والعبريون لم يكادوا يُفرّقون بين الحرف في عهد الملوك. فنرى كل أسرة- في دَوْر تاريخهم الطويل- تتدارك احتياجاتها الخاصة، فتخبز خبزها، وتفتل غزلها، وتحوك نسجها، فتصنع منها ثيابها، وتزرع حقولها، وتربّي أنعامها، فتذبحها، وتعد جلودها.

والحِدادة هي أول صنعة بدت مستقلة. غير أن المعادن لم تكن كثيرة لدى بني إسرائيل، فكانت الأدوات الحجرية والخشبية أكثر الأدوات انتشارًا. وما كانت الأسلحة نفسها مصنوعة دومًا من الحديد، ولا من النحاس. ومن الحق: أن كانت الصوانة[١٢٨] التي تؤخذ من السيل، أمضى من الرمح في يد هؤلاء الرعاة الجنود، فبالمقلاع قتلَ داودُ جليات الجبار[١٢٩].

وتلك العادات هي عادات الأعراب، الذين لا يزالون يعيشون في أطراف

---

[١٢٨] الصوانة: ضربٌ من الحجارة شديدٌ. جمعها: صوّان (القاموس المحيط مج١، ص ١٥٦٣).

[١٢٩] صموئيل الأول ٤٩: ١٧ "ومدّ داود يده إلى الكنف، وأخذ منه حجرًا، ورماه بالمقلاع، وضرب الفلسطيني في جبهته؛ فارتزّ الحجر في جبهته؛ وسقط على وجهه إلى الأرض. ٥٠ فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر، وضرب الفلسطيني وقتله. ولم يكن سيف بيد داود".

البادية. وتلك العادات لم يُغيِّرها بنو إسرائيل، حتى بعد أن أبصروا حضارات مصر وآشور الساطعة.

وبنو إسرائيل ظلوا قومًا من الزرّاع والرعاة فقط. فانحصرَ عملُهم في تربية المواشي، وزراعة القمح والتين، والزيتون والعنب على الدوام.

وما كان عملُ أبطال بني إسرائيل- قبل قيادتهم إلى النصر- غيْر جرِّ المحراث، وجزِّ الشياه. فكان جدعونُ[١٣٠] يدرس البُرَّ، ويذروها حينما بدا له الملك. فأمره بأن ينقذ قومه من نير المدينيين. وكان شاول يبحث عن أتن[١٣١] أبيه، حينما أخبرَه صموئيل بأنه سيكون ملكًا[١٣٢]. واجترأ داود على الحرب بردِّه الضواري التي أتت لتهاجم ماشيته، حينما كان راعيًا[١٣٣].

وتوزيع الأعمال، بحصره مهارة العامل في مادة واحدة، يؤدي إلى تحسين الصناعة، ويُسهِّل ازدهار المهنة، وما كان العبريون ليسيروا بهذا التوزيع إلى الحدِّ الذي ينالون به مثل هذه النتائج.

ولم تكن في فلسطين أيَّة صناعة، مهما كان نوعها. وإذا حدث أن صنع اليهودُ شيئًا، فعلي ألا يستحقَ الإصدار. وفي عهد سليمان، حينما لاحَ الترف، كان هذا الترف يُغذى بالمنتجات التي يؤتى بها من الخارج.

---

[١٣٠] في سفر القضاة (٦:١١) "وأتى ملاك الرب، وجلس تحت البطمة التى في عفرة، التي ليوآش الأبيعزري. وابنه جدعون كان يخبط حنطة في المعصرة؛ لكي يهربها من المديانيين. ١٢ فظهر له ملاك الرب وقال له: الرب معك، يا جبار البأس! ١٣ فقال له جدعون: أسألك يا سيدي، إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه؟ وأين كل عجائبه التي اخبرنا بها آباؤنا قائلين: ألم يصعدنا الرب من مصر! والآن قد رفضنا الرب، وجعلنا في كف مديان. ١٤ التفت إليه الرب وقال: اذهب بقوتك هذه، وخلّص إسرائيل من كفّ مديان. أما أرسلتك".

[١٣١] أتن: جمع أتان. وهو الحمارة (مختار الصحاح، ص٤).

[١٣٢] صموئيل (٩:٣) "فضلت أتن قيس أبي شاول. فقال قيس لشاول ابنه: خذ معك واحدًا من الغلمان، وقمْ اذهبْ. فتشْ على الأتن. ١٤ فصعدا إلى المدينة. وفيما هما آتيان في وسط المدينة، إذا بصموئيل خارج للقائهما، ليصعد إلى المرتفعة. ١٥ والرب كشف أذن صموئيل- قبل مجيء شاول بيوم- قائلا: ١٦ غدًا في مثل الآن، أرسل إليك رجلا من أرض بنيامين. فامسحه رئيسًا لشعبي إسرائيل، فيخلص شعبي من يد الفلسطينيين؛ لأني نظرت إلى شعبي؛ لأن صراخهم قد جاء إليَّ..
١٩فأجاب صموئيل شاول وقال: أنا الرائي. اصعدا أمامي إلى المرتفعة، فتأكلا معي اليوم، ثم أطلقك صباحًا، وأخبرك بكل ما في قلبك".

[١٣٣] صموئيل الأول ٣٤-٣٥: ١٧.

وكان يقوم إصدار العبريين على ثمرات الأرض، من بُرّ وخمر، وزيت ودهن، وما إلى ذلك. فترسَل هذه المحاصيل- على الخصوص- إلى فينيقية، التي لم يكن لديها غير أراضٍ ضيقة، لا تكفي لإعاشة مدنها الكبيرة، فتُدخِل فينيقية إلى بلاد اليهودية- في مقابل ذلك- ما تصنعه في مصانعها، أو ما تأتي به من العالم، الذي كانت ذات علاقة به، من الحُليّ والرِّياش، والسلاح والنُّسُج، والخشب والعاج.

وكذلك كان بنو إسرائيل عاطلين، حتى في إبّان أُبّهَتهم، عطلا تامًا من العمال المهرة في الحرف الغليظة، كالنجارة مثلا.

قال سليمان لملك صور حيرام:

"والآن، فمُرْ بأن يُقطع لي أرز من لبنان، وعبيدي يكونون مع عبيدك، وأجرة عبيدك أؤديها إليك بحسب جميع ما ترسم، لأنك تعلم أن ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيدونيين. والآن، أرسل إليّ رجلا حاذقًا بعمل الذهب والفضة، والنحاس والحديد، والأرْجوان[١٣٤] والقِرْمِز[١٣٥]، والسَّمَنْجُوني[١٣٦]"[١٣٧].

وكان سليمان يُعطي حيرام في كل عام عشرين ألف كُرٍّ من الحنطة، وعشرين ألف كُر من زيت الأرض[١٣٨]. فيَدُلُّ هذا، بما فيه الكفاية، على أي شيء كانت ثروة بني إسرائيل.

ومن فينيقية أيضًا، أتى عامل ماهر جدًا، فجاء في التوراة أنه:

"صانعُ نُحاس، وكان ممتلئًا حكمة وفهمًا ومعرفة في كل صنعة من النحاس"[١٣٩].

---

[١٣٤] الأرْجُوَانُ: صبغ أحمر شديد الحمرة (مختار الصحاح، ص ٢٦٧).
[١٣٥] القرمز: صبغ أحمر (لسان العرب ٣٩٤/٥).
[١٣٦] اسْمَنْجُوني: أزرق سماوي.
[١٣٧] الملوك الأول ٦:٥ وما بعدها.
[١٣٨] الملوك الأول ١١:٥.
[١٣٩] الملوك الأول ١٤: ٧ "وهو ابن امرأة أرملة، من سبط نفتالي، وأبوه رجل صوري نحاس. وكان

ورَقَبَ هذا العاملُ صَهْر ما زُين به الهيكل من الأعمدة والآنية النحاسية ووضْعَها[١٤٠].

وإذا لم تخرج الصناعة في بلاد اليهودية عن أدنى الأطوار البدائية، أمكننا أن نبصر من ذلك حال الفنون في تلك البلاد، أو عدم وجود هذه الفنون على الأصح، لما كان من عدم وجود أي شيء يتجلى فيه ذلك هنالك.

ولا تجد شعبًا عطِل من الذوق الفني كما عطِل اليهود.

والشريعة التي حرَّمتْ على اليهود منحوت الصور[١٤١]، لم تُحرم العالمَ آثارًا نفيسة بذلك، وما وقع من مخالفة اليهود للوصية الثانية غير مرة، لم يؤدِّ إلى غير العجول النحاسية أو الذهبية، التي هي أصنام اليهود المفضَّلة، المصبوبة صبًّا رديئًا، على أوتاد غليظة، عُدَّت رموزًا للرجولة[١٤٢]، والمنصوبة تحت غِياض عَشْتروت. تلك الأصنام القومية، أو الترافيم، التي هي ضَرْب من اللُّعَب المثيرة للسخرية، والتي أضْجَعَتْ إحداها على فراش داود، مستورة الرأس بعناية، زوجته؛ لتعطي- بطريق العوض- جنودَ شاولَ المرسَلين ليقتلوه[١٤٣].

إذن، لا ينبغي لنا أن نحدِّث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بني إسرائيل. وقلْ مثلَ هذا عن فن البناء عندهم. فانظر إلى هيكلهم المشهور،

ممتلئا حكمة وفهمًا، ومعرفة لعمل كل عمل في النحاس. فأتى إلى الملك سليمان، وعمل كل عمله".

[١٤٠] الملوك الأول ١٥: ٧ "وصوّر العمودين من نحاس، طول العمود الواحد ثمانية عشر ذراعًا. وخيْط اثنتا عشرة ذراعًا، يحيط بالعمود الآخر. ١٦ وعمل تاجين ليضعهما على رأسي العمودين من نحاس مسبوك. طول التاج الواحد خمس أذرع، وطول التاج الآخر خمس أذرع".

[١٤١] الخروج ٢٠:٤ "لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما، مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض".

[١٤٢] الخروج ٣٢:١٩ "وكان عندما اقترب إلى المحلة: أنه أبصر العجل والرقص. فحمي غضبُ موسى، وطرح اللوحين من يديه، وكسرهما في أسفل الجبل".

[١٤٣] صموئيل الأول ١٩: ١١ "فأرسل شاول رسلا إلى بيت داود ليراقبوه، ويقتلوه في الصباح. فأخبرت داودَ ميكال امرأته قائلة: إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة؛ فانك تُقتل غدا. ١٢ فأنزلت ميكال داود من الكوّة، فذهب هاربًا ونجا. ١٣ فأخذت ميكال الترافيم، ووضعته في الفراش، ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه، وغطته بثوب. ١٤ وأرسل شاول رسلا لأخذ داود. فقالت: هو مريض. ١٥ ثم أرسل شاول الرسل ليروا داود قائلا: اصعدوا به إليّ على الفراش؛ لكي أقتله. ١٦ فجاء الرسل، وإذا في الفراش الترافيم، ولبدة المعزى تحت رأسه. ١٧ فقال شاول لميكال: لماذا خدعتني، فأطلقت عدوي حتى نجا؟ فقالت ميكال لشاول: هو قال لي أطلقيني. لماذا أقتلك؟!".

(هيكل سليمان) الذي نشر حوله كثير من الأبحاث المُملة، تجده بناءً أقيم على الطراز الآشوري المصري، من قبل بنائين من الأجانب، كما تدل عليه التوراة[١٤٤].

ولم تكن قصور ذلك الملك غير نسخ دنيئة عن القصور المصرية أو الآشورية. ولا تعتقد أن ذلك الملك أقام في مدينة تدمُر- التي أسسها- تلك الأعمدةَ الفخمة التي قاومت عمل القرون، فلا تزال تثير العجب؛ فتلك الأعمدة قد وُضعتْ بعد ذلك بزمن. وكان نَبُوْخَذ نُصَّر قد دَكَّ جميع تُدْمُر سليمان، فلم يبقَ فيها حجرٌ واحد.

ولم يمارس العبريون من الفنون الجميلة سوى الموسيقى، التي هي فن جميع الشعوب الابتدائية. وكانوا شديدي الحب لها، فيمزجون بها ملاذهم، وتمريناتهم العسكرية، وأعيادهم الدينية. ومما لا مراء فيه أنها قليلة التعقيد، شبيهة بألحان النواح لدى العرب المعاصرين. ونعد من آلات الطرب المعروفة عندهم: المعْزَف، والطنبور[١٤٥]، والصَّنْج، والمِزْمار، والبُوق، والطبل.

وعلى ما كان من ممارسة بني إسرائيل للحرب باستمرار، لم تصبح الحرب فنًا ولا علمًا عندهم، فكانت تعوزهم التعبئة، وما كان ليكتب لهم فوز إلا بضرب من الصَّوْلة المشابهة لغارة البدويين المعاصرين. وبنو إسرائيل إذ كانوا جبناء خُوَّفًا بطبيعتهم، لم يبدوا مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءه زعماؤهم وأنبياؤهم فيهم من حماسة مؤقتة.

جاء في سفر الملوك:

"فسمع شاول وجميع إسرائيل كلامَ الفلسطيني (جليات) هذا، فارتاعوا وخافوا جدًا"[١٤٦].

ولما سار جدعون إلى المدينيين خاطب جنوده بقوله:

---

[١٤٤] ذكرنا نصوصًا عن مشاركة حيرام وتبعيته في بناء البيت.
[١٤٥] الطُّنْبُورُ: آلة من آلات الملاهي ذات أوتار (المصباح المنير ٢/٣٦٨).
[١٤٦] صموئيل الأول ١١:١٧.

"مَن كان خائفًا مرتعدًا، فليرجع، وينصرف"[١٤٧].

فتركه اثنان وعشرون ألفًا، من اثنين وثلاثين ألفًا، ليعودوا إلى منازلهم.

ويعرف جميع قراء التوراة وحشية اليهود التي لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ، ليقنع بذلك، إلا أن يتصفح نصوص سفر الملوك، التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين، وسلخ جلودهم، ووشرهم[١٤٨] بالمنشار[١٤٩]. وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قلّ، وكان الأهالي الأصليون يُوقفون، فيُحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة، فيُبادون باسم يَهْوَه، من غير نظر إلى الجنس، ولا إلى السن. وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء.

جاء في سفر يشوع أنهم بعد الاستيلاء على أريحا:

"أهلكوا جميع ما في المدينة، من رجل وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بِحَدِّ السيف... وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار، إلا الذهب والفضة وآنية النحاس، فإنهم جعلوها في خزانة بيت الرب"[١٥٠].

وكان اليهود يمارسون الرق على مقياس واسع، ولم يكن حال الرقيق عندهم لا يطاق، شأنه لدى جميع الشرقيين، فقد كان الرقيق من العِرْق الإسرائيلي يُعامَل كفرد من أبناء الأسرة، وكان يحق له بعد انقضاء سبع سنين أن يُخيَّر بين العتق والبقاء رقيقًا. فإذا ما استحوذ عليه غمُّ الغد، أو الشعورُ بالعجز عن كفاية نفسه بنفسه، أو حبُّ سيده الصالح- اختارَ النجْدَ الثاني، فظلّ رقيقًا مدى حياته. وإذا ما اختار النجْد الأول، وجبَ ألا يُسرَّح بغير أسباب للمعاش[١٥١].

جاء في سفر التثنية:

---

[١٤٧] القضاة ٣:٧ "والآن نادِ في آذان الشعب قائلا: من كان خائفا ومرتعدًا فليرجع، وينصرف من جبل جلعاد. فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفا. وبقي عشرة آلاف".

[١٤٨] وشر: وَشَرَ الخشبة بالمنشار، غير مهموز، لغة في أشرها (مختار الصحاح، ص٧٤٠).

[١٤٩] أخبار الأيام الأول "٣:٢٠ وأخرج الشعب الذين بها، ونشرهم بمناشير، ونوارج حديد وفؤوس. وهكذا صنع داود لكل مدن بني عمون. ثم رجع داود وكل الشعب إلى أورشليم".

[١٥٠] يشوع ٢١-٢٤: ٦.

[١٥١] الخروج ٢:٢١ وما بعدها.

"إذا أطلقته حُرًّا من عندك، فلا تطلقه فارغًا، بل زوده من غنمك وبيدرك ومعصرتك...واذكر أنك كنت عبدًا في أرض مصر"[152].

وفي سفر اللاويين، نرى الحكم القائل بمعاملة بني إسرائيل الذين يُباعون من أجل الدَّين كأجراء، لا كأرقاء[153].

ويضيف المشترعُ إلى ذلك قوله:

".... من الأمم التي حواليكم، تقتنون العبيد والإماء"[154].

وكان أفراد كل سبط يؤلفون لدى اليهود أسرة متحدة، متبادلة العون على الدوام، كما عند جميع الشعوب القائلة بالنظام الرعائي.

جاء في سفر التثنية:

"إذا كان عندك فقيرٌ من إخوتك في إحدى مدنك، في أرضك التي يعطيكها الرب إلهك، فلا تقسُ قلبك، ولا تقبضْ يدك عنه، بل ابسطْ له يدَك، وأقرضه مقدار ما يعوزه"[155].

وكان الربا مُحرَّمًا بشدة بين بني إسرائيل، مع أنه عملهم المفضَّل تجاه الأجانب في كل زمن. وكان مبدأ التضامن القومي- الزاجرَ القوي الوحيد، الذي يضع حدًّا لجشع اليهودي[156].

ولم تنطفئ بعد الفتح روح الأسرة، أي ذلك الشعور القديم الذي نشأ تحت الخيمة، وغذي في البادية، فقدس سلطان الأب على الدوام، فكان للمباركة واللعانية الأبويتين قدرة تكاد تكون خارقة للعادة في كل حين[157].

---

[152] التثنية ١٣-١٤: ١٥.
[153] التثنية ٤٢: ١٥ "لأنهم عبيدي، الذين أخرجتهم من ارض مصر، لا يُباعون بيع العبيد".
[154] اللاويين ٤٤:٢٥.
[155] التثنية ٧-٨: ١٥.
[156] التثنية ١٩:٢٣ "لا تقرض أخاك بربا. ربا فضة أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يقرض بربًا. ٢٠ للأجنبي تقرض بربًا. ولكن لأخيك لا تقرض بربًا؛ لكي يباركك الرب إلهك، في كل ما تمتد إليه يدك، في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها".
[157] تكوين ٤١:٢٧ "فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه. وقال عيسو في قلبه: قربتْ أيام مناحة أبي. فأقتل يعقوب أخي".

ومع ذلك، خسِر ربُّ الأسرة حقَّ الحياة وحق الممات على أبنائـه، كمـا خَسِرَ حق تغيير نظام ولادتهم، بأن يعترف بحق البكرية لمن يشاء منهم.

على أن حق البكرية لم يكن ليمنح صاحبه في فلسطين سوى زيادة تافهـة في الميراث، ما دامت التركة تقسم بين جميع الأولاد، ومنهم البنات[158].

وكانت كثرة الذرية تلوح أعظم ما يَمُنُّ بـه يَهْوَه علـى الرجل[159]. وكـان عقم المرأة يُعد عارًا[160].

وكان الرجل إذا مات عقيمًا، تزوَّج أخوه الصغير بأرملته؛ وصْلا لسببه- كما جاء في التوراة[161].

وإذا كان الميِّت غيرَ ذي أخ، تزوَّج بأرملته أقربُ آله إليه، فكان من الفضائح رفض ذلك في مثل تلك الحال[162].

وكـان علـى المرأة التـي يـرفض سلفها أن يتزوجهـا أن تراجـع بـاب المدينـة، حيث يجلس الشيوخ. والبـاب كـان لـه عند اليهود، كمـا فـي جميـع الشـرق، شـأن الساحة أو المحكمة لدى الرومان. ومثل هذه العادة ممـا لـوحظ فـي أبـواب آشـور الكبيرة.

---

[158] أيوب ١٥:٤٢.

[159] تكوين ٢٢:١٧ اباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيرًا، كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه".

[160] تثنية ٧:١٤ "مباركًا تكون فوق جميع الشعوب. لا يكون عقيم، ولا عاقر فيك، ولا في بهائمك".

[161] تكوين ٣٨:٨ "فقال يهوذا لأونان: ادخل على امرأة أخيك، وتزوج بها، وأقم نسلا لأخيك".

[162] هذه مسألة البياما والحالوص. قال السموأل: "ومن الفضائح التي عندهم مذهبهم في قصة البياما والحالوص... ففرَّع فقهاؤهم على ذلك ما فيه خزيهم وفضيحتهم، وذلك أنه إذا زهدت المرأة في نكاح أخي زوجها المتوفى، أكرهوه على النزول عنها، ثم ألزموها الحضور عند الحاكم بمحضر من مشيختهم الحاخاميم، ولقنوها أن تقول: أبى ابن حميي أن يُقيم لأخيه اسمًا في إسرائيل، ولم يُرِدْ نكاحي. فيلزمونها الكذب عليه؛ لأنه أراد فمنعته، فكان الامتناع منها، والإرادة منه. وإذا لقنوها تلك الألفاظ، فهم يأمرونها بالكذب. ويحضرونه، ويأمرونه بأن يقوم ويقول: ما أردتُ نكاحها. ولعل ذلك سؤله ومناه. فيأمرونه بأن يكذب. وأما إخراقها به، وبصقها في وجهه، فغاية التعدي؛ لأنه ما كفاهم بأن يكذبوا عليه، وألزموه بأن يكذب، حتى ألزموه عقابًا على ذنب لم يجنه. فصاروا كما قال الشاعر:
وجُرْمٌ جَرَّهُ سفهاءُ قومٍ   فحلَّ بغير جانيه العقابُ (بذل المجهود في لإفحام اليهود: السموأل بن يحيى المغربي (الحبر شموائيل بن يهوذا بن آبوان)، ط٣، تحقيق: د.محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، ومكتبة الزهراء، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢١٠).

فأمام الشيوخ تقول الأرملة المرفوضة:

"قد أبى أخو زوجي أن يُقيم لأخيه اسمًا في إسرائيل، ولم يَرْضني زوجة"[163].

وهنالك يستدعي الشيوخُ المتمردَ، ويدعونه إلى القيام بما هو مفروض عليه، فإذا أصرَّ على رفضه، خَلعتْ كُنته نعله من رجله، وتفلتْ في وجهه أمام الشيوخ، وقالت:

"هكذا يُصنع بالرجل الذي لا يَبني بيت أخيه".

"فيُدعَى في آل إسرائيل بيتَ المخلوع النعل"[164]- كما جاء في سفر التثنية.

وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعًا كثيرًا لدى بني إسرائيل على الدوام، وما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه[165]. ومما حدَث في الدور الرعائي[166]، أنه كان لإبراهيم ويعقوب أزواج كثيرات[167]، ويعقوب قد تزوج بانتظام الأختين لينة، وراحيل[168]. وسليمان كان له عدة مئات من النساء[169].

---

[163] تثنية ٧:٢٥.

[164] تثنية ٩-١٠: ٢٥.

[165] تزوج موسى عليه السلام من أربع نساء، حسبما ورد في التوراة. وقد ورد في سفر صموئيل (٢٣ :٢٦) ذكر تسع زوجات لسيدنا داود عليه السلام.

[166] وفي إنجيل متى أن المسيح ضرب هذا المثال:
"١ حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى، أخذن مصابيحهن، وخرجن للقاء العريس. ٢ وكان خمس منهنّ حكيمات، وخمس جاهلات. ٣ أما الجاهلات، فأخذن مصابيحهن، ولم يأخذن معهن زيتا. ٤ وأما الحكيمات، فأخذن زيتا في آنيتهن، مع مصابيحهن. ٥ وفيما أبطأ العريس، نعسن جميعهن ونمن. ٦ ففي نصف الليل، صار صراخ: هو ذا العريس مقبل، فاخرجن للقائه. ٧ فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحن مصابيحهن. ٨ فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن؛ فإن مصابيحنا تنطفئ. ٩ فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكنّ بل اذهبن إلى الباعة، وابتعن لكنّ. ١٠ وفيما هنّ ذاهبات ليبتعن، جاء العريس، والمستعدات دخلن معه إلى العرس، وأغلق الباب".
فهذا العريس، له عشر زوجات، والمسيح لم ينكر عليه ذلك.

[167] تزوج إبراهيم ثلاث نساء: سارة، وهاجر، وقطورة. ففي سفر التكوين (١١:٢٩) "واتخذ إبرام وناحور لأنفسهما امرأتين. اسم امرأة إبرام: ساراي". وفيه: (١٦:٣) "فأخذت ساراي، امرأة إبرام، هاجرَ المصرية جاريتها، من بعد عشر سنين، لإقامة إبرام في أرض كنعان، وأعطتها لإبرام رجلها، زوجة له". وفيه أيضًا: (٢٥:١) "وعاد إبراهيم، فأخذ زوجة اسمها قطورة".

[168] في سفر التكوين (٢٩:٢٨) "ففعل يعقوب هكذا. فأكمل أسبوع هذه. فأعطاه راحيل ابنته زوجة له". وفيه (٢٩:٢٣) "وكان في المساء: أنه أخذ لينة ابنته، وأتى بها إليه. فدخل عليها". وكانت له جارية اسمها بلهة. ففي سفر التكوين (٣٠:٧) وحبلت أيضا بلهة، جارية راحيل. وولدت ابنا ثانيًا ليعقوب". وكانت له جارية أخرى اسمها زلفة كما في سفر التكوين (٣٠:٩) "ولما رأت لينة أنها

وكانت النساء تنال بالشراء- كما هو عند العرب المعاصرين.

وكانت البكارة أمرًا مقدَّرًا كثيرًا لدى اليهود، فإذا أثبت الزوج أن زوجته الفتاة لم تكن عذارء، مع أن أبويها زوَّجوه بها على أنها بِكر- قُتلتْ رجمًا[170]. وإذا ثبت كذب الزوج، ألزمَ بدفع مئة من الفضة إلى أبويها، ومنع من تطليقها[171].

ومَنْ يغتصب فتاة، يُحمل على تجهيزها، والزواج بها[172].

ومَن يغتصب فتاة مخطوبة، يُعد عمله مساويًا لزنا الزوج؛ فيُقتل[173].

ومن الغرابة بمكان، أن كانت الفتاةُ تعد مذنبة فتُرْجم إذا حدث الجُرْم في مكان مسكون؛ لعدم استغاثتها فيه مع إمكان ذلك. وأن كانت الفتاة تبرأ إذا وقع الجُرم في البريَّة؛ لإمكان استغاثتها من غير أن يُسمع صوتها.

وكان الوفاء الزوجي أمرًا محترمًا لدى بني إسرائيل. وكان زنا الأزواج يعد جرمًا فظيعًا، فيعاقب مقترفه بالقتل.

وزنا المرأة، لا زنا الرجل، هو المقصود هنا، وذلك لاستطاعة الرجل أن يتزوج بالعدد الذي يرغب فيه من الزوجات الشرعيات وغير الشرعيات، ما سمحت وسائله له بذلك، وما كان الرجل ليعد مجرمًا إلا إذا زنا بفتاة مخطوبة، أو بامرأة متزوجة، فهنالك يُقتل[174].

توقفت عن الولادة، أخذت زلفة جاريتها، وأعطتها ليعقوب زوجة".

[169] كان لسليمان ﷺ سبعمائة زوجة، وثلاثمائة أمَة. ففي سفر الملوك الأول "١١:٣ وكانت له سبعمئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه".

[170] تثنية ٢٠: ٢٢ "ولكن إن كان هذا الأمر صحيحًا، ولم توجد عذرة للفتاة" ٢١ يُخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت؛ لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها. فتنزع الشر من وسطك".

[171] تثنية ١٣-١٩: ٢٢.

[172] تثنية ٢٢:٢٨ "إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة، فأمسكها، واضطجع معها. فوُجِدا ٢٩ يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة. وتكون هي له زوجة، من أجل أنه قد أذلها. لا يقدر أن يطلقها كل أيامه".

[173] تثنية ٢٢:٢٣ "إذا كانت فتاة عذراء، مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة، واضطجع معها٢٤ فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة؛ حتى يموتا. الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه. فتنزع الشر من وسطك".

[174] تثنية ٢٢:٢٢ "إذا وجد رجل مضطجعًا مع امرأة، زوجة بعل. يُقتل الاثنان. الرجل المضطجع

وليس زنا الأزواج هو الجرم الوحيد الذي تُحرِّمه الشريعة على مزاج بني إسرائيل الداعر، ففي شريعتهم تعداد لدعارات عنيفة، مع شدة عقوبة من يقترف إحداها، وتثبت هذه الشدة كثرة المخالفات.

وسفاح ذوي القربى، أي الزنا بالأخت[175]، والزنا بالأم[176]، واللواط[177]، والمساحقة، ومواقعة البهائم[178]، من أكثر الآثام التي كانت شائعة بين ذلك الشعب، الذي نصّ تاسيت[179] على شَبَق له، لا يُروى غليله.

وأُريدَ لدى بني إسرائيل، كما عند كل شعب ذي غُلْمَة، خلط أفظع الملاذ بالطقوس المقدسة، وموافقة الشريعة على هذه الملاذ. فعدتْ ضروبُ البغاء تكريمًا لعشتروت، وعُدَّ الانهماك في السُكر على بُسُط الأزهار، وتحت ظلال شجر الزيتون، في الليالي الرطيبة، نوعًا من العبادة التي لم تفتأ تمارس آنئذ في فلسطين، على الرغم من غضب الأنبياء[180].

وما في الفصل الثامن عشر من سفر اللاويين من المحظورات، كسفاح ذوي القربى، واللواط، ومواقعة الرجال والنساء للبهائم[181]، وما إلى ذلك من الأمور

مع المرأة، والمرأة. فتنزع الشر من إسرائيل".

[175] تثنية ٢٢:٢٧ "ملعون مَن يضطجع مع أخته: بنت أبيه، أو بنت أمه. ويقول جميع الشعب: آمين".

[176] اللاويين ٧:١٨.

[177] اللاويين ٢٢:١٨.

[178] تثنية ٢١:٢٧.

[179] تاسيت: هو كورنيليوس تاسيتوس. كان مؤرخاً رومانياً، عاش بين عامي ٥٦-١٢٠ قبل الميلاد. يعتقد بأنه قد ولد في فرنسا أو غاول من عائلة أرستوقراطية نبيلة. شغل منصب عضو في مجلس الشيوخ، قنصلاً، وفي النهاية أصبح حاكماً لآسيا.

[180] سفر هوشع ٤:٧ وما بعدها.

[181] ٦ لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة. أنا الرب. ٧ عورة أبيك، وعورة أمك، لا تكشف. إنها أمك، لا تكشف عورتها. ٨ عورة امرأة أبيك لا تكشف. إنها عورة أبيك. ٩ عورة أختك بنت أبيك، أو بنت أمك، المولودة في البيت، أو المولودة خارجًا، لا تكشف عورتها. ١٠ عورة ابنة ابنك، أو ابنة بنتك، لا تكشف عورتها. إنها عورتك. ١١ عورة بنت امرأة أبيك، المولودة من أبيك، لا تكشف عورتها، إنها أختك. ١٢ عورة أخت أبيك لا تكشف. إنها قريبة أبيك. ١٣ عورة أخت أمك لا تكشف. إنها قريبة أمك. ١٤ عورة أخي أبيك لا تكشف. إلى امرأته لا تقترب. إنها عمتك. ١٥ عورة كنتك لا تكشف. إنها امرأة ابنك. لا تكشف عورتها. ١٦ عورة امرأة أخيك لا تكشف. إنها عورة أخيك. ١٧ عورة امرأة وبنتها لا تكشف. ولا تأخذ ابنة ابنها، أو ابنة بنتها؛ لتكشف عورتها. إنهما قريبتاها. إنه رذيلة. ١٨ ولا تأخذ امرأة على أختها للضرّ؛ لتكشف عورتها معها في حياتها.

التي لم يُحرّمها معظم الشرائع، لعدم فائدة النص على ذلك، فيدلُّ على درجة غلمة الشعب اليهودي.

وفي المجتمع اليهودي، كما في جميع المجتمعات الابتدائية، كانت المرأة كثيرة التبع. فتعَدُّ مملوكة تُشترَى من أبيها عند النكاح، فيكون زوجها سيدها المطلق[١٨٢].

ولم يكن لنذر أو قسم تبديه المرأة أية قيمة، ما لم يؤيده زوجها[١٨٣].

ولم تكن المرأة محصورة كالمرأة الشرقية في أيامنا. فالمرأة إذا ما كانت ذات مواهب خاصة، أمكنها أن تمثل دورًا، كمريم أخت موسى[١٨٤]، وكدبورة التي كانت قاضية[١٨٥].

وللنساء حق الميراث عند اليهود[١٨٦].

وللأم في الأسرة حق الاحترام كالأب، فقد جاء في سفر الخروج:

"أكرم أباك وأمك"[١٨٧].

وكان الموت جزاء من يضرب أباه وأمه[١٨٨].

وقانون العقوبات لدى بني إسرائيل، كان كله يقوم على مبدأ القصاص الفطري الجاهلي[١٨٩]. ويُلخَص في الأسطر الآتية، التي جاءت في سفر اللاويين:

---

١٩ ولا تقترب إلى امرأة في نجاسة طمثها؛ لتكشف عورتها. ٢٠ ولا تجعل مع امرأة صاحبك مضجعك لزرع، فتتنجس بها. ٢١ ولا تعط من زرعك للإجازة لمولك؛ لئلا تدنس اسم إلهك. أنا الرب. ٢٢ ولا تضاجع ذكرًا مضاجعة امرأة. إنه رجس. ٢٣ ولا تجعل مع بهيمة مضجعك فتتنجس بها. ولا تقف امرأة أمام بهيمة لنزائها. إنه فاحشة".

[١٨٢] الخروج ٧-٨: ٢١.

[١٨٣] العدد "١٣:٣٠ كل نذر، وكل قسم التزام لإذلال النفس: زوجها يثبته، وزوجها يفسخه".

[١٨٤] في سفر الخروج (١٥:٢١) "وأجابتهم مريم: رنموا للرب؛ فإنه قد تعظم. الفرسُ وراكبُه طرحهما في البحر".

[١٨٥] سفر القضاة، الإصحاح الرابع.

[١٨٦] العدد ٨:٣٦.

[١٨٧] الخروج ١٢:٢٠. التثنية ١٦:٥.

[١٨٨] الخروج ١٥:٢١.

[١٨٩] مبدأ القصاص هذا إلهي عادل. قال الله سبحانه في القرآن عن التوراة: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأنفَ بِالأنفِ وَالأذُنَ بِالأذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [المائدة: ٤٥].

"ومَن قتل إنسانًا يُقتل قتلا، ومَن قتل بهيمة فليُعوِّض مثلها، رأسًا بدل رأس. وأي إنسان أحدث عيبًا في قريبه، فليُصنع به كما صَنع، الكسر بالكسر، والعين بالعين، والسن بالسن. كالعيب الذي يُحدِثه في الإنسان، يُحْدَث فيه"[190].

حتى إنَّ هذا الحُكم كان يُطبَّق على الحيوانات أيضًا.

"فإذا ما نطح ثورٌ رجلا أو امرأة، فمات النطيح، رُجِم الثور مِن فوره"[191].

وكان المجرمون يُحاكَمون، ويُجازون باسم المجتمع. ومع ذلك، بقي من الطبائع الابتدائية في المجتمع اليهودي، ما كان يحقُّ للمظلوم أن يقتص به لنفسه. ومن هذا القبيل، حق القريب في الانتقام للقتيل، وكان لهذا القريب- المعروف بولي الدم- أن يقتل القاتل في غير المعبد، وفي بعض الملاجئ[192].

ولم يرتق اليهود إلى ما هو أعلى من درجة التطور الدنيا هذه، التي لم تكن وحيدة في عاداتهم، ولم تكن سَنَةُ الإبراء عند اليهود إلا وَجْهًا مخففًا من الشيوعية الابتدائية.

وفي كل تسع وأربعين سنة، أي ما يعدل أسبوع سنوات في سبع سنوات- كما كان يقول اليهود، كانت تفتح سنة الإبراء، وهي السنة الخمسون، فتترك الأرض بائرة فيها، ويُحرَّر العبيد فيها. وفيها تسترد كل أسرة إسرائيلية ميراث آبائها، في الحصة التي أعطيت لأجدادها عند القسمة[193].

وإذا عدوتَ سنة الإبراء، وجدت لدى اليهود سَنة البطالة. وفي هذه السنة تؤجل الديون، وفيها يستردُّ الإسرائيليون الذين غدوا أرقاء- بسبب فقرهم- حريتهم "لكيلا يكون بينكم فقراء"- كما جاء في الشريعة[194].

ومن خلال ذلك، تبصر الشيوعية القديمة، المانعة من كل تقدم، والتي تود

---

[190] اللاويين ١٧-٢٠: ٢٤.
[191] الخروج ٢٨:٢١.
[192] العدد ١٩:٣٥.
[193] هو عيد اليوبيل. وقد ورد ذكره في سفر اللاويين، الإصحاح الخامس والعشرين، الفقرة الثامنة وما بعدها.
[194] الخروج ١١:٢٣.

الاشتراكية الحكومية أن تسوقنا إليها. ومن المحتمل، أن يجد الباحث في دوام تلك النظم الابتدائية، أحد الأسباب التي حالت دون تقدم المجتمع اليهودي في الصناعة والفن والثقافة[١٩٥].

وكان الاعتداء على المال، يُعَدُّ ذنبًا عظيمًا، فيُجازى مجترحه برَدِّ ضعفي قيمة المال المسروق، أو ثلاثة أمثال قيمته. وقد يبلغ ذلك خمسة أمثال قيمته في بعض الأحيان[١٩٦].

وكان الفصلُ من المجتمع الإسرائيلي مِن أقسى العقوبات التي تُفرَض في غير حال؛ لِما يتضمنه من الموت المدني. وكان الذي يَحتَمل هذا الجُرْم، يخسر المنافع الثمينة التي يَمُنُّ بها لقب الإسرائيلي عليه، ويخسر فوائد التضامن، الذي كان ينتفع به أدنى شخص من ذرية يعقوب[١٩٧].

وتذكِّرنا حكومة العبريين، على الدوام، بالنظام الرعائي الخاص، الذي يُشاهَد لدى جميع البدويين.

وحافظ الشيوخ، حتى في عهْد الملوك، على كبير سلطان في كل مدينة[١٩٨].

وفي غضون القرون، كان الشيوخ أو القضاة يتسلمون القيادة في زمن الحرب، على غرار رؤساء العصابات البدوية.

حتى إن الملوك، أنفسهم كانت لهم تلك المزية الأبوية أو العسكرية، التي يُشتق منها كلُّ سلطان لدى بني إسرائيل. وما كان الملوك هؤلاء ليشابهوا عاهلي آسية المتكبِّرين، الذين هم ضَرْب من شباه الآلهة، فلا يُقترَب منهم إلا

---

[١٩٥] لمحة تاريخية، تبين الظروف السياسية المحيطة بالمؤلف. فقد كانت الاشتراكية ناشئة في بلاده. فأراد أن يعبر عن رفضه لها، من خلال هذه اللمحة، التي يستشهد بأحداث التاريخ فيها. ومعلوم أن بدايات الحركة الاشتراكية الفرنسية كانت عام ١٨٧١م، حيث اندلع صراع طويل عنيف بين القوى العمالية من جهة، والقوى الرأسمالية من جهة أخرى.

[١٩٦] الخروج ١:٢٢.

[١٩٧] اللاويين (١٠: ١٧) "وكل إنسان من بيت إسرائيل، ومن الغرباء النازلين في وسطكم، يأكل دمًا. اجعل وجهي ضد النفس الآكلة الدم، واقطعها من شعبها".

[١٩٨] الملوك الأول (٦:١٢) "فاستشار الملك رحبعام الشيوخ، الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حيّ، قائلا: كيف تشيرون أن أرد جوابًا إلى هذا الشعب؟".

بارتجاف، إلا بتعريض النفس للموت. وكان شاوُلُ، وداودُ، وسليمان نفسه، وجميع خلفائهم، يعيشون قريبين من الشعب بلا تكلف، ليِّني الجانب تجاه الجميع، مُعَنَّفين من الأنبياء، مهانين بلا عقابٍ في بعض الأحيان، شأن داود الذي رَجَمه شِمْعِي بالحجارة[١٩٩].

وكانت حياة بني إسرائيل الخاصة بسيطة، وكانت ثرواتهم الكبيرة تتألف من المواشي والأثمار، والبُرّ والثياب المعدة ليُبْدَل منها بغيرها.

وكان لباسُهم كلباس العرب المعاصرين. وكانوا يحتذون نعالاً، وكانوا يتذوقون الحُلي. وغدا غُنَاج[٢٠٠] نسائهم عظيمًا في أواخر عهد الملوك. وأثار حبُّهم للحلي غضبَ الأنبياء، ومما ذكرته بسبب النفائس في بابل عددُ زخارف بنات الشرق الزاهيات أولئك، كما ورد على لسان إشَعْيَا الحادّ[٢٠١].

وفي بلاط سليمان، تجلّت أكبرُ أبَّهة عرضت لدى بني إسرائيل.

جاء في سفر أخبار الأيام الثاني:

"رأت ملكة سبأ البيت الذي بناه سليمان، وطعام موائده، ومسكن عبيده، وقيام خدامه ولباسهم، وسقاته ولباسهم، ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب"[٢٠٢].

ويمكننا أن نبصر، من خلال الاحترام الممزوج بالدَّهش في وصف المؤرخ لتروس الذهب التي زين بها سليمان قصره، ولعرشه العاجي المرصَّع بالذهب، وآنيته الذهبية، درجة ما كان يمكن أن يؤثر به مثل هذه النفائس في روح العبريين الساذجة.

ومن الطريف، أن يلاحظ- منذ ذلك الدور- سرور اليهود في عرض الأموال

---

[١٩٩] صموئيل الثاني (١٣:١٦) "وإذ كان داود ورجاله يسيرون في الطريق، كان شمعي يسير في جانب الجبل مقابله، ويسب وهو سائر، ويرشق بالحجارة مقابله، ويذري التراب".
[٢٠٠] غُناج: امرأة غَنِجَة، حسنة الدَّلّ. وغُنجُها وغُناجُها شكلُها (لسان العرب ٣٣٧/٢).
[٢٠١] إشعيا (١٦:٣) "وقال الرب: من أجل أن بنات صهيون يتشامخن، ويمشين ممدودات الأعناق، وغامزات بعيونهن، وخاطرات في مشيهن، ويخشخشن بأرجلهن".
[٢٠٢] أخبار الأيام الثاني ٣-٤: ٩.

والنفائس عرضًا غليظًا، وفي اتخاذ المصنوعات الفنية الثمينة بفعل التقليد.

ولم يجر على فم مؤلف سفر أخبار الأيام الثاني غير كلمة الذهب، في وصف مظاهر الترف لدى سليمان. وقد كُررتْ هذه الكلمة اثنتي عشرة مرة في بضعة أسطر:

"عَمِلَ الملكُ سليمانُ مئتي مِجَنّب من ذهب مطروق، لِلمِجَنّب الواحد ستمئة مثقال ذهب مطروق، وثلاثمئة مِجَنٍّ من ذهب مطروق، للمِجَنِّ الواحد ثلاثمئة مثقال ذهب... وعمل الملك عرشًا كبيرًا من عاج وألبسة ذهبًا خالصًا، وكان للعرش ستُّ درجاتٍ مع موطئ من الذهب... وكانت جميع آنية شرب الملك سليمان ذهبًا.... لم يكن فيها فضة، إذ لم تكن الفضة تُحسَب شيئًا في أيام سليمان"[٢٠٣].

وما كان من عرض ذلك الذهب بجميع الأشكال في القصور والهيكل العاطل من كل جمال فني، فيدل على الروح اليهودية الساذجة الغليظة.

والتجارة كانت مصدر تلك الثروات، ولاسيما في دور التجارة البحرية، تلك التي جرَّبها سليمان تجربة لم تدم طويلا. وما كان بنو إسرائيل ليفكروا في أمر البحر، فقد كان ما يتخذه الملك من السفن والملاحين يؤخذ من فنيقية، كما كان يؤخذ خشب الأرْز والبناءون منها لشيْد الهيكل.

"وأرسل له حيرام على أيدي عبيده سفنًا وعبيدًا عارفين بالبحر، فأتوا أوْفِير مع عبيد سليمان، وأخذوا من هناك أربعمئة وخمسين قنطارًا من الذهب..."[٢٠٤].

"وكان للملك في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام. فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنين، حاملة ذهبًا وفضة وعاجًا، وقردة وطواويس"[٢٠٥].

ولم تختلف بيوت بني إسرائيل قطُّ عما يُشاهَد اليوم في سورية، فكانت بيوت الموسرين من الحجارة، وبيوت المعسرين من الآجر[٢٠٦].

---

[٢٠٣] أخبار الأيام الثاني ١٥-٢٠: ٩.
[٢٠٤] الملوك الأول ٢٧:٩ وما بعدها.
[٢٠٥] الملوك الأول ٢٢:١٠.
[٢٠٦] الآجُرُّ: الطوب النيئ الذي يُبنى به (مختار الصحاح، ص٦).

وكانت تلك البيوت بسيطة في داخلها. وكان رياشها يتألف من سرر وموائد ومقاعد، وقوارير عطور عادية، مادة وشكلاً- كما يظهر.

والنظافة هي الترف الأول، الذي حاول المشترعون نشره بين بني إسرائيل، فلاقوا كبير أذىً في الوصول إلى ذلك[٢٠٧]. والنظافة كانت أمرًا ضروريًا لذلك الشعب الوخيم، أكثر مما لأي شعب آخر؛ وذلك لكيلا تقرضه القروحُ والجرب، والقوباء[٢٠٨] والجذام. وآية تراث بني إسرائيل، المستقلة عن مواعيد يهوه المشكوك فيها، هي الدم الفاسد، الذي من شأنه أن يُستَر بنو إسرائيل بالأمراض الجلدية على الدوام[٢٠٩].

ولاحظ مشترعو بني إسرائيل أن لحم الخنزير، واللحوم الدامية، والحيوانات الهلامية (اللافقريَّة)، والمَحار، مما يؤدي إلى زيادة الأمراض الجلدية؛ فحرَّموا عليهم هذه الأغذية لهذا السبب- لا ريب، وكان أكل الخنزير مما يمقته يهوه[٢١٠]. وكان لا يجوز استعمال لحم المواشي، إلا بعد استنزاف كل دم منه.

وكان لابد من الأوامر الشرعية الصارمة؛ لمنع بني إسرائيل من أكل لحم الكلب[٢١١] والميتة[٢١٢]، وجميع أنواع الأوساخ.

وكان التطهير والغسل مما أمروا به، وغدا الختان تدبيرًا صحيًّا[٢١٣]. ووجبَ على النساء أن يقمن بالعناية الشديدة في كل حال تقضي الطبيعة عليهن به من الدنس المحتوم[٢١٤].

ويحمل كل واحد من هذه التدابير مؤيدًا دينيًا، فتعد مخالفته أمرًا مرهوبًا.

---

[٢٠٧] انظر الإصحاح السادس عشر من سفر اللاويين.

[٢٠٨] القوباء: مرض إنتاني جرثومي، تسببه العنقوديات، وأحيانا العقديات. يظهر المرض عند الأطفال بشكل قرحات، أكثر ما تكون حول الفم والأنف. ثم لا تلبث أن تتشكل قشور عسلية، تغطي هذه القرحات. وتكمن خطورة هذا المرض في أنه معدٍ.

[٢٠٩] العدد ٣٣:٣٥.

[٢١٠] اللاويين ٧:١١.

[٢١١] اللاويين ٢٧:١١.

[٢١٢] اللاويين ٣٩:١١.

[٢١٣] التكوين ١٠:١٧.

[٢١٤] اللاويين، الإصحاح الثاني عشر.

وفي سفر اللاويين فصول تامة، خاصة بوصف الأمراض الجلدية، وبوقايات العزل الضرورية؛ منعًا لسريانها بالعدوى. فإذا أصيب المرء ببثرة، وجبَ عليه أن يَمثل أمام الكهنة؛ ليُقرِّروا خطر الإصابة أو عدمه، وكان لا معدل عن حرق ثياب المرضى، والأدوات التي يمسونها[٢١٥].

ولولا مثل هذه الوقايات، ما وُفِق بنو إسرائيل للبقاء.

واليهود، على خلاف معظم الشرقيين، كانوا يخشون الموت؛ لما لا يبصرون وراءه سوى راحة كئيبة في مكان مظلم[٢١٦]، فكانوا يحتفلون بعيد الحياة احتفال تمجيد، فيبكون مَن يفقدونهم، مبدين من الألم المفرط ما وجبَ منعه[٢١٧].

وكانوا يولولون وينتحبون، ويضربون صدورهم، ويشقون ثيابهم، ويغمرون أنفسهم بالرماد إظهارًا لحدادهم، ولا مبالغة في الألم يوم المأتم- كما يظهر. وكان الميت يُنقل إلي قبر الأسرة المنحوت في الصخر، فيستقبله آباؤه- كما جاء في التوراة[٢١٨].

وكانت المظاهر الصاخبة، تظهر في الفرح ظهورها في الترح. ومن ذلك، أن داود أبدى من السرور- حين جلبَ إلى أورشليم تابوت يهوه- ما خلعَ معه ثيابه، وأتى من الوثوب بما أوتي من قوة، صاخبًا صخب الفرح، مسيئًا لزوجته ميكال بنت شاول، إساءة عدته مجنونًا من أجلها[٢١٩].

وإذا أريدَ تلخيص مزاج اليهود النفسي في بضع كلمات، كما يُستنبط من أسفارهم، وُجد أنه ظل على الدوام قريبًا جدًا من حال أشد الشعوب ابتدائية.

---

[٢١٥] اللاويين، الإصحاح الثالث عشر.

[٢١٦] انظر سفر أيوب، الإصحاح الثالث.

[٢١٧] تثنية ٨:٣٤ "فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يومًا. فكملت أيام بكاء مناحة موسى". وكذلك فعل يوسف لأبيه يعقوب بعد موته: "فأتوا إلى بيدر أطاد، الذي في عبر الأردن، وناحوا هناك نوحًا عظيمًا وشديدًا جدًا. وصنع لأبيه مناحة سبعة أيام" (تكوين ٥٠:١٠)

[٢١٨] أخبا الأيام الثاني ٣١:٩.

[٢١٩] صموئيل الثاني ٦:١٦ "ولمّا دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول من الكوّة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب، فاحتقرته في قلبها. ٦:٢٠ ورجع داود ليبارك بيته، فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود، وقالت: ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم، حيث تكشف اليوم في أعين إماء عبيده، كما يتكشف أحد السفهاء".

فقد كان اليهود عُنُدًا[٢٢٠] مندفعين، غفلا سذاجًا، جُفاة كالوحوش والأطفال. وكانوا مع ذلك عاطلين في كل وقت من الفتون، الذي يتجلى فيه سحر صبا الناس والشعوب. واليهود الهمَج[٢٢١] إذ وُجِدوا من فورهم مغمورين في سواء[٢٢٢] الحضارة الآسيوية المُسِنة، الناعمة المفسدة، أضحَوا ذوي معايب مع بقائهم جاهلين. واليهود أضاعوا خلالَ البادية، من غير أن ينالوا شيئًا من النمو الذهني، الذي هو تراث القرون.

وإذا أريدَ وصف المجتمع اليهودي من ناحية النظم، أمكن تلخيصه في كلمتين وهما: نظام رعائي، مع طبائع المدن الآسيوية الهَرِمَة وذوقها، وعيوبها وخرافاتها.

ويُغرب حِزَقيال عن ذلك الرأي، في الفصل السادس عشر، حين يذكر ظهور الشعب اليهودي الحقير، وأوائله الهزيلة، وما عقب استقراره بفلسطين من الحُمَيَّا[٢٢٣]. فيقول مخاطبًا تلك الأمّة العاقة، قائلا باسم يهوه:

"وفي جميع أرجاسك وفواحشك، لم تذكري أيام صباك... وإذا كنتِ لم تشبعي، زنيت مع بني آشور، ولم تشبعي... فلذلك أقضي عليك بما يُقضى على الفاسقات، وسافكات الدماء. وأجعلك قتيل حنق وغَيْرة"[٢٢٤].

---

[٢٢٠] عُنُد: جمع عَنود. وهو المعاند. من المُعَانَدَة، وهي المُفارَقة والمُجَانَبَة. وقد عَانَدَه إذا جَانَبَه. وهو من عَنَدَ الرَّجُلُ أصحابَه يَعنُد عُنُودًا، إذا ما تَرَكهم، واجتَازَ عليهم. وعنَدَ عَنْهُم: إذا ما تَرَكَهُم في سَفَر، وأخذ في غير طريقهم، أو تخَلّف عنهم. (تاج العروس، مج١، ص ٢١٤١).

[٢٢١] الهَمَجُ: رُذالُ الناس. ويقال لأشابَة الناس، الذين لا عقول لهم، ولا مُرُوءَة: هَمَجٌ هامج. وقومٌ هَمَجٌ: لا خير فيه (لسان العرب ٣٩٢/٢).

[٢٢٢] سواء: وسط.

[٢٢٣] الحُمَيَّا: الشدة والحدّة. يقال: سارَتْ فيه حُمَيَّا الكاس. اي سَوْرَتُها. وحُمُوَّة الألم: سَوْرَته. وحُمَيَّا كلّ شيء شِدَّته وحِدَّته" (لسان العرب ١٩٧/١٤).

[٢٢٤] حِزَقيال ٢٢-٣٨: ١٦.

الفصل الثالث

دين بني إسرائيل

لم تكن الديانة اليهودية في كل زمن مطابقة لما نسمّيه اليوم باليهودية.

وكان لابد من انقضاء قرون طويلة، قبل أن تصبح مناحي الساميين التوحيدية الموحدة في كونية بابل، والمحَرَّرة بالتدريج من الإشراك الآسيوي - الدينَ الذي زاوله اليهودُ منذ يسوع المسيح، والذي يُرَدُّ إلى زمن العودة من إسارة بابل تقريبًا.

ولا شبهَ بين إله اليهود الراهن، الذي يُوَحَّدُ بأبيِ المخلص إلهِ النصارى، وإلهِ سيناء يهوه، الذي يُراد اشتقاقه منه، وهو أكثر مشابهة من ذلك بإله الرعاة الغامض الكبير إلوهيم، الذي لا تجد له شخصية يهوه الضيّقة الشديدة.

وإلوهيم هو الاسم الذي نراه قد أطلق بالحقيقة على الألوهية في أقدم أسفار اليهود.

ولا يمكن أن يقال إن إلوهيم هو إله واحد؛ لجمعية اسمه؛ ولأن جميع الكلمات التي ترجع إليه قد وردتْ بصيغة الجمع.

فبنو إسرائيل كانوا يعبدون، إذن، إلوهيماتٍ في أثناء حياتهم البدوية، التي قضتها أجيالهم الأولى.

ولذلك، لا ينبغي أن يُطلب من هذا الشعب البسيط، تعريفٌ وثيق لموضوع عبادته، ولمبادئ الروح الساميّة- ما لآفاق الصحراء من الوجه الفخم النمطي المبْهَم. والروح الساميّة لا تحدد شيئًا، والروح السامية لا تحتوي شيئًا على أوجه واضحة مقرَّرة كثيرة، كالتي أسفر عنها الخيال الآري بسهولة، واليوم لا

تجد لدى البدوي الحاضر، سوى دين مبهم لا يَكترث له، وذلك على الرغم من إسلامه الظاهر[٢٢٥].

وما كان من فقدان الأوثان بين الساميين، ومن احتياجاتهم إلى البساطة، فقد كان يعدهم إلى التوحيد، فانتهوا إليه بسرعة.

على أن من الإفراط في التوكيد، أن يُخلط توحيدُ حياتهم الابتدائية المبهم، بما أعلنوه بعد زمن من الإيمان بإله واحد.

والحقُّ أن إلوهيم الأجيال القديمة السديمي[٢٢٦]، العاطلَ من الجنس والاسم، والواحدَ والمتعدد في آن واحد- يقرب من إله الأديان الكبرى الحديثة العام أكثر من قربه من يهوه الجائر، الذي يقطر من دم الشعوب المذبوحة ومن لحم القرابين، والحامي الوثيق لشعب صغير هزيل، والأخ لمُولك وبَعْل.

ومن الصعب، مع ذلك، أن يُسْهَب في بيان دين اليهود الابتدائي؛ وذلك لأننا لا نستطيع أن نحكم في أمره، إلا من خلال حال شعوب الجنوب الساميَّة. أي شعوب ذلك العرق، التي لم تعان نفوذَ الأجنبي.

ومهما نَعد بعيدًا إلى تاريخ ساميِّ الشمال (العمونيين، والإسماعيليين، واليهود)، لم نَسْطِع أن نعرف من ديانتهم غيرَ ما كان عقب إقامتهم بما بين النهرين، تلك الإقامة التي طبعت بطابع الفكر الكلداني الثابت.

وعمَّ الإشراك آسية منذ أقدم أزمنة التاريخ اليهودي، حتى في آل إبراهيم، وثلاثة من الموجودات الإلهية هي التي أوحتْ إلى هذا الأب الراعي بهدم سدوم[٢٢٧]، وراحيل أخذت معها أصنام لابان حين تركت بيت أبيها[٢٢٨].

---

[٢٢٥] كلام ليس على إطلاقه؛ فقد بين الله أصناف الأعراب قال: (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: ٩٧-٩٩].

[٢٢٦] السديمي: الغائم. والسديم هو الضباب الرقيق.

[٢٢٧] التكوين ٢:١٨.

[٢٢٨] التكوين ١٩:٣١.

ومما يبصر من قصة إسحق، كذلك، وجود القرابين البشرية منذ ذلك الزمن، ودوام هذه القرابين لدى بني إسرائيل زمنًا طويلا[٢٢٩].

وأسفرت إقامة العبريين بمصر عن قليل أثر في ديانتهم. ومن غير الحق أن أريدت رؤية ذكرى أبيس[٢٣٠] في العجل الذهبي- على ما يُحتمل.

وكان ذلك العجل، الذي هو رمز الرجولة، منتشرًا في جميع آسية، وكان ذلك العجل من أصل كلداني، وكان بنو إسرائيل يعبدون العجول المعدنية بعد خروجهم من مصر بطويل زمن؛ لارتوائهم من مبادئ ما بين النهرين الدينية، وكان هذا هو الوجه المفضل الذي يرمزون به إلى يهوه[٢٣١].

ومن مصر لم يقتبس بنو إسرائيل سوى جزئيات ظاهرية، أي صُدْرة الأحبار، وتابوت العهد، أو الناووس السهل النقل، المشتمل على يهوه في شكل حجرين[٢٣٢].

ومما يُذكر: أن فرعون مصر، وهو المساوي للآلهة، هو الذي كان يَحقُ له وحده أن يفتح الناووس، وأن يرى الشعار المرهوب الحافل بالأسرار.

وفي اليهودية، كان يحقُ للحبر الأعظم وحده أن يدخل مرة واحدة، في العام الواحد، قدسَ الأقداس، حيث تابوت العهد[٢٣٣].

والويل كل الويل لمن يجرؤ على مسِّ ذلك الصوان المقدس، فقد أصيب الفلسطينيون الذين كانوا قد أخذوه معهم بين غنائمهم بشرور مرهوبة، لم ينجوا

---

[٢٢٩] التكوين "٢٢:٢ فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق، واذهب إلى أرض المريّا، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك".

[٢٣٠] أبيس: لقب العجل المقدس الذي كان يدفن في مقابر السرابيوم بسقارة. وكان يعبد في منف. ويرمز للخصوبة. واعتبره قدماء المصريين روح الإله بتاح. وقد لقب بابن بتاح. لهذا كان يُتوج بوضع قرص الشمس بين قرنيه.

[٢٣١] الخروج ٣٢:٧ "فقال الرب لموسى: اذهب. انزل. لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. ٨ زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلا مسبوكًا، وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر".

[٢٣٢] التثنية ١٠:٢ "فاكتب على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما، وتضعهما في التابوت".

[٢٣٣] عبرانيين ٩:٢٥ "ولا ليقدم نفسه مرارًا كثيرة، كما يدخل رئيس الكهنة إلى الأقداس كل سنة بدم آخر".

منها إلا بعد أن أعاده[٢٣٤]. واعتقد أحد ضباط داود سقوط ذلك التابوت، فأراد دعمه، فمات من فوره[٢٣٥]!

وكل ما استطاعه بنو إسرائيل، هو أنهم اقتصروا على اقتباس تلك الخرافات من الحضارة المصرية العظيمة، التي هي أسمى من مستواهم بمراحل. وبنو إسرائيل كانوا يتركون تلك الخرافات كلما أشبعوا من المعتقدات الآسيوية، وآخر ذكر لتابوت العهد ورد في سفر إرميا، فبعد أن تكلم هذا النبي عن انتصار إله روحاني واحد بين بني إسرائيل، أضاف إلى ذلك قوله:

"لا يعودون يقولون: تابوت عهد الرب، ولا يخطر لهم ببال، ولا يذكرونه، ولا يفتقدونه، ولا يصنع من بَعد"[٢٣٦].

وفي وادي الفرات، نشأت ديانة بني إسرائيل، أو على الأصح مختلف العبادات التي مارسها بنو إسرائيل. وذلك بين إقامتهم بفلسطين، وعودتهم من إسارة بابل.

حتى إن أسماء آلهتهم، تدل على أصلها الأكادي في الغالب.

فكلمة إلوهيم هي جمع لكلمة إيل، التي تجئ في كلدة بمعنى الإله الأعلى، وكلمة بابل فيما بين النهرين، تجئ بمعنى باب إيل، كما أن بيت إيل تجئ في اليهودية بمعنى منزل إيل.

والمكان الذي قاتل يعقوب الرب فيه سمي فنوئيل، وتسمّى هذا الراعي- فيما بعد- باسم إسرائيل (الذي هو أقوى من إيل)[٢٣٧].

وليست الإلهة الكبرى الشهوانية عشيرا أو عشتروت، التي كان العبريون

---

[٢٣٤] صموئيل الأول ٥:١١ "وأرسلوا، وجمعوا كل أقطاب الفلسطينيين. وقالوا: أرسلوا تابوت إله إسرائيل، فيرجع إلى مكانه، ولا يميتنا نحن وشعبنا؛ لأن اضطراب الموت كان في كل المدينة. يد الله كانت ثقيلة جدًا هناك".

[٢٣٥] أخبار الأيام الأول ١٣:١٠ "فحمي غضب الرب على عزّا، وضربه من أجل أنه مدّ يده إلى التابوت، فمات هناك أمام الله".

[٢٣٦] إرميا ٣:١٦ "ويكون إذ تكثرون، وتثمرون في الأرض في تلك الأيام. يقول الرب: إنهم لا يقولون بَعْدُ: تابوت عهد الرب، ولا يخطر على بال، ولا يذكرونه، ولا يتعهدونه، ولا يُصنع بعد".

[٢٣٧] التكوين ٣٢:٣٠.

يعبدونها في الأماكن العليا بين الغياض[٢٣٨]، والتي كانوا يأتون بالدعارات المقدسة تكريمًا لها، إلا زَهراءَ (فينوسَ) بابلَ عَشتار.

وليس بعلٌ الذي جعله بنو إسرائيل منافسًا ليهوه، والذي اختلط به في نهاية الأمر، بعل كلدة، وإنما انحدر منه على وجه غير مباشر، أي بعد أن جاوز فنيقية حيث استعاره العبريون.

وإذا عدوتَ دائرة الأسماء، التي هي أمرٌ ظاهري، إلى الغاية، وجدت أساس الدين يدل على أية دائرة من الأساطير صدرت عنها معتقدات اليهود.

فمن ينظر إلى نظام الكون البابلي القديم، الذي وُجد في الكتابات المسمارية، والذي هو أقدم من تاريخ التوراة بعدة قرون، يُبصر مشابهته للكونية التي وردت في سفر التكوين، والتي ليست غير نسخة بسيطة عنه.

على أن الرأي البابلي القائل بخلق الدنيا في ستة أيام، أي في أدوار متعاقبة، مما كان كثيرًا على الدور الذي بدا فيه، فليس تبيُّنُ ذلك بالذي يصدر عن شعب ساميٍّ ذي أفكار مبهمة[٢٣٩].

وما تراه أيضًا في أقاصيص سفر التكوين من نوع المنطق، ومن براعة التأليف وقوة الخيال، فما يجاوز قابليات بني إسرائيل بمراحل لا يحصيها عدٌّ[٢٤٠].

وترى الكنيسة معجزة في تفتح تلك الكونية العظيمة في صميم عصابة من البدويين الجاهليين الأجلاف، فتستنتج من ذلك صدورها عن وحي إلهي بحكم الطبيعة.

ويتضح سرُّ المعجزة، ويزول افتراض الوحي، عندما ترى فاتحة التوراة في كتابات حكماء كلدة، التي هي أقدم من سفر الخروج بزمن طويل.

---

[٢٣٨] الغِياضُ: جمع غَيْضة. وهي الشجر المُلتف (لسان العرب ٧/٢٠١).
[٢٣٩] خلق الدنيا في ستة أيام مصدره إلهي. قال الله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) [يونس: ٣].
[٢٤٠] هذا كتاب اختلط فيه الحق بالباطل، وكلام الله بكلام البشر.

ومن الإصابة قول مسيو رينان:

"لم يخترع الراعي البدوي تلك الأقاصيص الرائعة، بل أوجب نجاحها، ولم تكن الكونية الكلدانية لتعم العالم بشكلها الزائد الوارد في النصوص الآشورية، فكان لابد من القريحة السامية لتبسيط تلك الكونية، في الوقت الذي أرادت النفس البشرية فيه مبادئ واضحة حول ما لا يُعرَف بوضوح.... فغدت الغرائبُ التي كانت تظل مختنقة في حَشويات الشرق من الأمور البديهية، وتمتْ هذه المعجزة بفضل خيال بني إسرائيل الجليّ القانع، وما كان غريبًا في تاريخ كلدة، بدا في أقاصيص التوراة من الصحة والسهولة، ما رأتْ فيه سذاجتُنا الغربية تاريخًا، معتقدة أنها إذا ما انتحلتْ هذه الأقاصيص، قطعت صلتها بالأساطير الأولى".

ولا تبصر الأساطير الكلدانية في سفر التكوين وحده، بل تجد آثارًا لها في أسفار أقل قدمًا منها على وجه أقل وضوحًا. ومن ذلك قصة شِمْشون التي وردت في سفر القضاة.

يمثل شِمْشونُ الهرْكُولَ[٢٤١] الإسرائيلي بقدرته الغريبة، وأعماله التي كان ينجزها بوسائل بسيطة جدًا. والواقع أن هرْكول من أصل بابلي، ويتجلى مثاله في نينيب[٢٤٢] المعروف، ذلك الإنسان الآشوري الأكادي العجيب، الذي كان يقتل الأسد بيد واحدة، ولم يكن اسمه شمشون مع ذلك، بل كان شمشون الذي معناه: "الشمس"، أي نصف الإله، الذي كان يوجد كثيرًا على ضفاف الفرات[٢٤٣].

وليس لدينا من الوقت ما نعرض فيه هنا ما أسفر عنه تفسير التوراة الحديث

---

[٢٤١] هركول: اسم أحد آلهة صور.

[٢٤٢] نينيب: أخضع الملك نينيب جميع أمم آسيا، ما عدا الهنود، وشيّد مدينة نينوى، على شاطئ نهر دجلة، ومات بعد حكم ٥٢ عامًا.

[٢٤٣] يرى أساتذة تاريخ اليهودية أن تبلور اليهودية على شكل بنية فكر ديني واضح المعالم، قد بدأ في بابل، ونضج خلال القرن الأول من إقامتهم فيها. ومن المتعذر تعداد جوانب تأثير بابل في اليهودية، ولذلك نكتفي بذكر أن اليهودية اقتبست الكثير من تراث بابل، ونظمها، وأساطيرها، وعقائدها. مثل: عقيدة الماشيّح المخلّص، وفكرة الطوفان، والاحتفال بالسبت. ولذا، فإن كثيرًا من المفكرين اليهود، يرون أن اليهودية تبلورت دينًا، بالمعنى الكامل للكلمة، في المهجر البابلي.

حول تلك المسائل، وإنما نقتصر على ذكر أمرٍ اقتبسه اليهود من عبادات كلدة.

إنَّ من الأقاصيص التي انتحلها بنو إسرائيل طوْعًا، هي قصة تموز الإلهي ابن عشتار، الذي ذهبت الآلهة لتبحث عنه حتى سواء الجحيم.

وكان يمثل موتَ تمُّوز الذي غدا أدونيسَ الإغريق نهاية الخريف، وكان ذلك الإله الجميل يموت في كل سنة؛ ليُبعث بعد كل شتاء، فإذا دلَّ حرُّ الصيف على فقده بُكي باحتفال، فكانت النساء تقوم بالشعائر المأتمية نادباتٍ طالعَه.

ومما رواه حزقيال: أنه كان في زمانه نساءٌ تبكي تموز في معبد الرب[٢٤٤].

ولنبحث الآن في صفات أهم آلهة بني إسرائيل وأخلاقها، وذلك من غير دخول في التفصيل.

كان للآلهة: يهوه، وبعل، وعشيرا، طبائع وصفات خاصة بالسيارات، والجوِّ، والشمس، كما كان لجميع آلهة كلدة.

وانتقل إلى جميع الساميين- الذين سكنوا ما بين النهرين- ما كان يساور قدماء سكانه من التأثير العميق الثابت، الصادر عن منظر السماء الساطع الصافي، وعن عوارض العواصف المفاجئة المرهوبة.

وظلت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمة طويل زمن لدى جميع أمم سورية، ولدى بني إسرائيل على الخصوص.

وفي زمن حزقيال، حوالي أواخر أيام مملكة يهوذا، كان يمكن أن يُرى، حتى في هيكل أورشليم، يهودٌ كانوا يسجدون أمام الشمس، مولين وجوهم شطر المشرق[٢٤٥].

وكانت عبادة الشمس تختلط آنئذ بعبادة الحيوانات، وذلك لما كان من تصوير

---

[٢٤٤] حزقيال (٨:١٤) "فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب، الذي من جهة الشمال، وإذ هناك نسوة جالسات، يبكين على تموز".

[٢٤٥] حزقيال (٨:١٦) "فجاء بي إلى دار بيت الرب الداخلية، وإذا عند باب هيكل الرب- بين الرواق والمذبح- نحو خمسة وعشرون رجلا، ظهورهم نحو هيكل الرب، ووجوههم نحو الشرق، وهم ساجدون للشمس نحو الشرق".

القوم على جدر معبد يهوه صور الزحّافات والبهائم والأشياء الكريهة، وجميع آلهة آل إسرائيل الفاضحة- كما روى النبي ذلك[246].

ومع ذلك، أسفر الإصلاح اليهودي العظيم، الذي قام به الملك يوشيّا قبل ذلك بقليل سنوات، عن تطهير الهيكل من الأصنام التي كان حافلا بها.

فقد أمر ذلك الملك الكهنة كما جاء في سفر الملوك:

"أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الأدوات المصنوعة للبعل والعشتاروت ولجميع جنود السماء، فأحرقها"[247].

"وأزالَ الخيلَ التي أقامها ملوك يهوذا للشمس من عند مدخل بيت الرب، وأحرق مراكب الشمس"[248].

ولكن شعب إسرائيل كان قد بلغ من الغرق في الإشراك ما كان يتعذر معه على عزيمة ملك، أو خطب نبي، تخليصه منه.

وكان إلهُ النار مُوْلك الهائل، الذي هو من الأصنام المفضّلة، يمثل بتماثيل نحاسية، فيوضَع صغارُ الأولاد على ذرعانها المحماة.

وكان التقيُّ يوشيا يحارب تلك الخرافة الظالمة، "فنَجّسَ تُوْفتَ التي في وادي بني هِنُّومَ لكي لا يُجيزَ أحد ابنه أو ابنته في النار لمُوْلك"[249].

وكان مولك إله النار الضارة، وكان يمثل الصاعقة التي تحرق الحصاد، وحرارة الشمس الضارية التي تجعل السهول جديبة. وكان مُوْلك إلهًا مرهوبًا، فيجب تسكينه.

وكان بعْلٌ، على عكس مولك، يمثل الشمس النافعة، فيُنضج أثمار الأرض، ويُحَمِّر القِطف العطري بين خضرة الغصون. وكان الفينيقيون، على الخصوص، يعبدون بعلا، فأدخلته إيزابَل الصّيدونية، على الخصوص، إلى

---

[246] حزقيال ١٠:٨.
[247] سفر الملوك الثاني ٤:٢٣.
[248] سفر الملوك الثاني ١١:٢٣.
[249] سفر الملوك الثاني ١٠:٢٣.

العبريين.

وظهر في عهد زوج تلك الأميرة آحابَ جفافٌ عظيم، فتصارع نبيُّ يهوه إيليا والكهنةُ ليعرفوا أي آلهتهم ينزل المطر، ويمن على الحقول بالخضر. وظهر أن دعاء إيليا أعظم أثرًا من دعاء منافسيه، فأساءَ هذا الأمر الملكة إيزابل كثيرًا"[٢٥٠].

وكان لعشيرا، وهي عشتارتا الفنيقيين، وعشتار بابل، أو ميليتا بابل، عظيم حُظوة لدى شعب إسرائيل الشبق، وذلك لما كان لها من شعائر شهوانية.

وكانت هياكل ذلك الإله تقوم على تلال ذات هواء منعش رطيب، فوق سهول محرقة، ذات بعوض مفسد لبقاع الدنيا، وكانت تحاط تلك الهياكل بغاب الزيتون، حيث يُسمَع للحمائم العاشقات سجعٌ وهديلٌ[٢٥١]، وحيث كانت الفتيات، اللائي يتألف من أجسامهن اللطيفة ضحايا حيَّة، معدة على الدوام لتكتوي بنيران إلهة الحب، يقضين نُهُرَهن[٢٥٢] في تطريز الخيام للغياض، ولياليهن في قضاء أوطار المؤمنين، الذين يتاقطرون إلى هنالك.

وكان وتدٌ صغير مغروز في الأرض، رمزًا غليظًا لعضو التذكير، يكفي لتلقين مبدأ عشيرا، وتقديس الغابة.

وغدت تلك العهارات المقدسة تكتسب شكلا كريهًا، عندما صار الخصيان، لا النساء، هم الذين يبيعون أنفسهم من المؤمنين في ليل الغاب الكثيف الفاتن، وعلى ما كان من نعت الأنبياء لهؤلاء الخصيان بالكلاب، وعلى ما كان من حظر نذر أجور هؤلاء الفاسقين- لم ينفك بنو إسرائيل عن مضاجعتهم. فمن أجل هذه المنكرات، وصف الأنبياء إشَعْيا، وإرْميا، وحِزْقيال على الخصوص، أورشليم بالمدينة العاهرة، التي لا تشبع من الفجور[٢٥٣].

---

[٢٥٠] الملوك الأول ٢١:١٦ وما بعدها.

[٢٥١] هديل: هو صوت الحمام.

[٢٥٢] نُهُرهن: النَّهَارُ ضد الليل. ولا يُجمع كما لا يُجمع العذاب والسَّراب. فإن جمعته قلت في القليل: أنهُرٌ، وفي الكثير: نُهُر بضمتين، كسحاب، وسُحُب. وأنشد ابن كيسان: لولا الثَّريدان لمُتنا بالضُّمُر * ثَريد ليل وثَريد بالنُّهُر (مختار الصحاح، ص ٦٨٨).

[٢٥٣] إرمياء ٢٧:١٣ "فسقك، وصهيلك، ورذالة زناك على الآكام في الحقل، قد رايت مكرهاتك. ويل

قال يهوه لتلك المدينة الأثيمة:

"أتكلتِ على جمالك، وزنيتِ على اسمك، وسكبتِ فواحشك على كل مجتاز كان له ما تبتغين، وأخذت من ثيابك، فصنعت لك مشارف ملفقة الشقق، وزنيتِ فيها زنىً لم يكن، ولن يكون"[254].

ويهوه، ذلك الذي بدا كثير الغيرة للمعبودات المنافسة، كان الإله الذي يتخذه الأنبياء لدعوة بني إسرائيل إلى مبدأ التوحيد السامي.

والأنبياء كانوا يختارونه؛ لأنه الإله القومي؛ ولأنه- وقد تشخّص الشعبُ فيه، حكّمَ بني إسرائيل في السراء وفي الضراء، فكان له من النصيب في الارتضاء به وحده- أكثر مما بغيره[255].

وكان نشوء يهوه في سيناء، بسبب الهول الذي أوجبه في بني إسرائيل منظر ما يجهله وادي النيل من مناظر عواصف الجبل المرهوبة[256].

وكان يهوه في بدء الأمر إله الجو فقط، وكانت الصاعقة والرياح والسحب تعد جيادًا له، رسلا له، دلائل عليه[257].

وقد مُثل يهوه في تابوت العهد بحجرين سقطا على الصحراء، تحت نظر بني إسرائيل المبهوتين.

لك يا أورشليم! لا تطهرين! حتى متى بعد؟!".

[254] حزقيال ١٥-١٦: ١٦.

[255] إن اليهودية تأثرت بالتشكيل الحضاري السامي الوثني، ودخلت عليها عناصر وثنية حلولية عديدة، وجدت طريقها إلى العهد القديم عند تسجيله. مثل: فكرة الشعب المختار، المرتبط بأرض مقدسة، والمتمركز حول ذاته، وفكرة الميثاق بين الإله وشعب بعينه، وتزايُد الشعائر وخصوصًا شعائر الطهارة، وتداخُل العناصر الكونية مع العناصر الدينية في الأعياد اليهودية، وتراجُع فكرة البعث واهتزاز الأفكار الأخروية. وعلى هذا، فإن العهد القديم يُعدّ وثيقة صراع بين اتجاهين: اتجاه توحيدي عالمي أخلاقي متسام، يؤمن بإله يسمو على العالمين، ولا يُفضل قومًا على قوم إلا بالتقوى. وهو الاتجاه الذي حمل لواءه الأنبياء والرسل. أمّا الاتجاه الآخر، فهو اتجاه وثني حلولي، قومي تخصيصي. يرى إله اليهود إلهًا يحل فيهم وحدهم، فهو مقصور عليهم. يحابيهم ويعطف عليهم، ويعصف بأعدائهم. ويرى اليهود أنفسهم شعبًا مقدسًا، يشغل مركز الكون (موسوعة اليهود واليهودية).

[256] الخروج ١٦: ١٩. التثنية ٢٢: ٥.

[257] المزامير ١٠: ١٨.

ولا يزال يهوه يتجلى في عمود الدخان وعمود النار، اللذين كانا دليلين لبني إسرائيل في التيه، مع صدورهما عن الريح التي تعبث بالصحراء[٢٥٨].

وفي جميع أسفار التوراة، حتى في أحدثها، ترى العوارض الجوية ملازمة لذلك الإله، مخبرة به على الدوام.

وقد أنزله إيليا على الهيكل في صورة حمامة، ولقيه على جبل الكرْمل في نسيم خفيف[٢٥٩]، وسمع أيوب صوته يخرج من عاصفة[٢٦٠].

وفي المزمور الثامن عشر، ذُكر ظهور ذلك الإله كما يأتي:

"سطع دخان من أنفه، ومن فيه نارٌ آكلة، جمْر متقد، طأطأ السماوات، ونزل والضباب تحت قدميه، ركب على كروب، وطار وخطف على أجنحة الرياح، جعل الظلمة حجابًا له مِظلة حوله، ظلام المياه، ودَجْنَ السحب، من بهاء حضرته مرت سحبه، برد وجمر نار، أرعد الرب من السماء، واسمع العلي صوته، بَرَد وجمر نار"[٢٦١].

ولم ينشب ذلك الإله، الذي هو وليد هول البادية، أن عُدَّ بين بني إسرائيل إلهًا خاصًا بهم، وإن شئت فقل: ملكًا قوميًا لهم[٢٦٢].

ومن العادات العامة بآسية، حتى في مصر، وحتى لدى جميع الأمم القديمة، أنْ كان لكل مدينة، ولكل قبيلة، إلهها الخاص الحافظ، مع اعترافها بطائفة من الآلهة، فكان لمؤاب الإله خَمُوس، ولصورَ الإله مِلكارت، وللفلسطينيين الإله داجون، ولبني إسرائيل الإلهُ يَهْوَه.

ولم يعبد بنو إسرائيل، حتى دور الإسارة، وحتى عند أكثر أنبيائهم توحيدًا- إلهًا يمكن أن يكون رب الأمم الأخرى، ولم يكن لإصلاحات الأنبياء غير صبغة محلية في كل حين، وكل ما كان يطلبه هؤلاء الأنبياء هو أن تسود بني إسرائيل

---

[٢٥٨] الخروج ٢٤:١٤.
[٢٥٩] الملوك الأول ١١-١٢: ١٩.
[٢٦٠] أيوب ٢:٣٧.
[٢٦١] المزمور الثامن عشر، ٧-١٣.
[٢٦٢] التثنية ٦:٧.

عبادة يهوه على حساب المعبودات الأجنبية. ففي فلسطين، لم يفكر أحدٌ في إلهٍ أزلي شامل قبل إشعيا وإرميا. أي نَبِيَّي المنفي الكبيرين، اللذين لم يكادا يبصران تلك النتيجة المجيدة.

وعلى ما في أسفار اليهود من دفاع عن أفضلية يهوه، لم تمار هذه الأسفار قط في وجود آلهة أجنبية.

جاء في سفر التثنية:

"أيُّ شعبٍ كبير، ذي آلهة قريبة منه، قرُب يهوه منا، حينما نبتهل إليه في كل مرة؟!"[263].

وسفر التثنية هذا، يأمر بني إسرائيل بهدم جميع مدن الشعوب المغلوبة، وبيوت عبادتها، وتحطيم أصنامها؛ لكيلا يضطروا إلى خدمة آلهة البلدان الأجنبية. ومعنى هذا أنه لولا هذا التخريب؛ لاقتضى انتحال الآلهة التي تشتمل عليها تلك المحال بطبيعة الحال[264].

إذن، أضحى يهوه إله بني إسرائيل القومي. بيْد أنه كان لا معدل لهذا الإله، مع غيرته، عن العيش متفاهمًا هو وطائفة من الآلهة والإلهات، والحيوانات المقدسة، كالعجل والثعبان، حتى الزمن الذي أدى فيه تطور بني إسرائيل الديني إلى عودة هذا الشعب إلى ميوله الأولى، التي أفسدتها الإقامة بما بين النهرين، أي إلى التوحيد السامي.

وكان يهوه ذلك ضاريًا على الخصوص، فالدماء، إذا لم تُرَقْ، والشحم إذا لم يُقتر على المذبح- لم يرتض.

وكانت تقدم إليه قرابين عظيمة. وبلغ ما ذبحه سليمان دفعة واحدة من الثيران والخرفان الكثيرة، ما ظهر معه المذبح النحاسي، الذي يُذبح عليه عادة- صغيرًا جدًا، فجلس هذا الملك في فناء الهيكل وهو يذبح، أو يأمر بالذبح بلا

---

[263] تثنية ٧:٤ لأنه: أيّ شعب هو عظيم، له آلهة قريبة منه، كالرب إلهنا في كل ادعيتنا إليه".

[264] عدد ٣٣:٥٢ "فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة، وتخربون جميع مرتفعاتهم".

انقطاع مدة أسبوع كامل، فبلغ ما ذبحه، بحسب رواية أخباره، اثنين وعشرين ألف ثور، ومئة وعشرين ألف خروف؛ إرضاء لميول إلهه الدامية[٢٦٥].

ولم يكن يهوه ليرتضي بالقرابين الحيوانية وحدها، بل كان لابد من تقديم القرابين البشرية إليه، ودامت هذه العادة لدى بني إسرائيل طويل زمن، فضحَّى يفتاحُ بابنته[٢٦٦]، وكاد إبراهيم يضحي بابنه[٢٦٧]، وضحى صموئيل بملك العمالقة أجَاجَ، فقدمه قطعًا إلى يَهْوَه في الجلجال[٢٦٨].

وتتجلى سجية يهوه الدامية في معظم أوامره إلى شعبه، وقد قال إلى الشعب المختار:

"إذا ما دخلت مدينة، لم يَفُتْكَ أن تقتل سكانها بحد السيف، وأن تستأصلهم أطِلة الدم، وأن تبيد كل ما يكون في تلك المدينة، وأن تذبح حتى بهائمها"[٢٦٩].

فهذا هو المعبود الهائل، الذي كان يسوع الحليم يسميه "أبي"[٢٧٠]. وأمام هذا

---

[٢٦٥] الملوك الأول ٦٣:٨ "وذبحَ سليمان ذبائح السلامة، التي ذبحها للرب: من البقر اثنين وعشرين ألفًا. ومن الغنم مئة ألف، وعشرين ألفًا. فدشن الملك، وجميع بني إسرائيل بيت الرب".

[٢٦٦] القضاة ٣٠: ١١ "ونذر يفتاح نذرًا للرب قائلا: إن دفعت بني عمون ليدي ٣١ فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون يكون للرب، وأصعده محرقة. ٣٢ ثم عبر يفتاح إلى بني عمون لمحاربتهم. فدفعهم الرب ليده ٣٣ فضربهم من عروعير إلى مجيئك، إلى منّيت عشرين مدينة، وإلى آبل الكروم- ضربة عظيمة جدًا .فذلّ بنو عمون أمام بني إسرائيل ٣٤ ثم أتى يفتاح إلى المصفاة، إلى بيته. وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص. وهي وحيدة. لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها. ٣٥ وكان لمّا رآها أنه مزّق ثيابه وقال: آه يا بنتي قد أحزنتني حزنا، وصرت بين مكدّريّ؛ لأني قد فتحت فمي إلى الرب، ولا يمكنني الرجوع. ٣٩ وكان عند نهاية الشهرين، أنها رجعت إلى أبيها، ففعل بها نذره الذي نذر، وهي لم تعرف رجلا. فصارت عادة في إسرائيل".

[٢٦٧] تكوين ٩:٢٢ "فلمّا أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح، ورتّب الحطب، وربط اسحق ابنه، ووضعه على المذبح فوق الحطب ١٠ ثم مدَّ إبراهيم يده، وأخذ السكين ليذبح ابنه ١١ فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم. إبراهيم! فقال: هأنذا. ١٣ فرفع إبراهيم عينيه، ونظر. وإذا كبش وراءه ممسكًا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم، وأخذ الكبش، وأصعده محرقة؛ عوضًا عن ابنه".

[٢٦٨] صموئيل الأول ٣٢: ١٥ "وقال صموئيل: قدّموا إلي أجاج، ملك عماليق. فذهب إليه أجاج فرحًا. وقال أجاج: حقا قد زالت مرارة الموت! ٣٣ فقال صموئيل: كما أثكل سيفك النساء، كذلك تثكل أمك بين النساء. فقطع صموئيل أجاج إمام الرب في الجلجال".

[٢٦٩] تثنية ١٣:١٥ "فضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف. ١٦ تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلا إلى الأبد، لا تبنى بعد".

[٢٧٠] يوحنا ٦:٣٢ "فقال لهم يسوع: الحق. الحق أقول لكم! ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء. بل

المعبود، تضم النساء النصرانيات الناعمات أيادي أطفالهن منذ عدة قرون.

ومع ذلك، رأتِ النصرانية بالغريزة ألا تستعمل كلمة يهوه، منتحلة كلمة الرب على العموم. وهذا الاسم رائع مبهم، كاسم إلوهيم الرُّعاة.

ومن العمل المطوّل، الذي لا نصنعه هنا: أن نتعقب خطوة خطوة، التطور الطويل الذي تحوّل به، سنة بعد سنة، وقرنًا بعد قرن، الإلهُ الطاغية الممثل بحجرين، يهوه سيناء، والذي بدا به في بدء الأمر ضاريًا، مشبعًا من ضحايا داود وسليمان، والذي ظهر به بعدئذ أزلي إشعْيا المدعي بحكم العالم، والذي تجلى به في نهاية الأمر أبًا ليسوع، فمزجَ بطبيعته هذا المصلح الحليم.

كما أننا لا نبين هنا كيفية ظهور بعض العقائد النصرانية، ونشوء هذه العقائد، كالبعث والحياة الآخرة، التي سكتت عنها التوراة تقريبًا. وليس الموت لدى بني إسرائيل غير نوم عميق بلا يقظة، وفي هذه الحياة الدنيا، لا في الحياة الآخرة، ما يجب أن يتحقق وعد يهوه ووعيده حول مراعاة الشريعة الشديدة.

ودام، حتى زمن الإسارة، دين اليهود القائل بتعدد الآلهة ـ كما وصفناه، وذلك بعباداته الكثيرة، وطقوسه المتنوعة، وأساطيره المتكاثفة.

ثم كانت خطوة نحو التوحيد، وكانت هذه الخطوة من المفاجأة ما يظن معه أنها وليدة طفرة حقيقية، لا تطور منتظم.

وثغرَة كتلك، مما كان لا يتجلى في تاريخ بني إسرائيل، ولا في فكرهم، بل في أسفارهم المقدسة.

إن التوراة كتاب ألف في أدوار مختلفة أشد الاختلاف، وإن التوراة مملوءة بالارتباطات والاختلاطات والروايات المرتبة المصنوعة بعد قصير وقت. ويعقب شعر إشعيا الروحاني السامي في تاريخه ومكانه في العهد القديم، إشراك الأجيال القديمة، وأقاصيصها الجاهلية. ومما لا ريب فيه وجود ثغرة عدة قرون في ذلك لا تسدها وثائق التوراة.

أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء".

وليس علينا أن نبحث هنا كيف يمكن ذلك، فقد سرنا واليهود حتى الزمن الذي عادوا لا يؤلفون فيه أمة، فلا نرسم التحولات التي عاناها فكرهم بتعاقب الأجيال بعد ذلك، وقد بيَّنا، بما فيه الكفاية، التطور الذي أضحت به المذاهب الكلدانية دين اليهودية، بعد أن انتحلها هذا الشعب الجديد، فمن مجاوزة حدود هذا الكتاب أن نبيِّن كيف صار دين اليهود المشتق من المعتقدات الكلدانية، الدين الكبير الذي هيمن على أمم أوروبة المتمدنة نحو ألفي سنة، وذلك باقترانه بالأساطير الآرية.

الفصل الرابع

الآداب العبرية

إذا كان اليهود قد عَطِلوا من الفن والصناعة عَطَلا تامًا، وإذا كان اليهود قد ظلوا بمعزل عن كل جمال يفوق المال، فإنك تجد لهم آدابًا غنية منوّعة، يجدر ذكر بعض أجزائها.

وليست تلك الظاهرة خاصة ببني إسرائيل فقط، فهي تشاهَدُ لدى جميع الأمم السامية، ولاسيما العرب الذين كانوا قبل الإسلام ذوي شعر بعيد الصيت حقًا. على أن الشعر، مع الموسيقى، فنٌ جميع الأمم الفِطرية. والشعر مع بُعده من التقدم موازيًا لتقدم الحضارة، تجده يضيق أهمية وتأثيرًا كلما ارتقت الأمم. فقد اقتضت الحضارة قرونًا طويلة لاختراع الآلة البخارية، واكتشاف سنن الجاذبية، مع إمكان ظهور قصائد كالأوذيسة، والإلياذة، وأغاني أوسيان في أدوار الجاهلية[٢٧١].

وحالت حياة البداوة، على الدوام، بين أهل البدو دون ظهور فنون شاخصة، وأدتْ إلى عدم اكتراثهم لتركيب الخطوط المنسجمة، وهي لم تحفز ملكاتهم إلى غير سبيل الشعر، ولاسيما الشعر الغنائي.

وأقدم أغاني العرب هي الأجمل، ولما أقام العربي بالمدن بعدئذ، حافظ على عادة الذهاب إلى تحت الخيام؛ ليُقوّي وحيَه. والعربي، في قصده إخوانه الأعراب، يكون كما لو ذهب إلى المدرسة ليتعلم اللغة الفصحى، والوزن

---

[٢٧١] وظهرت في الجزيرة العربية المعلقات السبع الشعرية، التي كُتبت بماء الذهب، وعلقت على أستار الكعبة.

الرنان، وأخيلة البطولة.

وعند العبريين، سارَ الشعراء أو الأنبياء على سُنَّة الشعوب السامية، حتى في زمن الرخاء، وحتى في زمن الجاه. وفي أيام العهد الملكي الأولى، كان أولئك الذين يسمعون أقوى الكلام، يتمثلون هذا الكلام في العزلة، فيبدون من ذوي الهوس والجرأة والخيال.

وللساميين في البادية فتنة لا تُقاوم، فكان يحنُّ إلى آفاقها الواسعة حتى في قصور الأرْز والذهب التي شادها سليمان. والبادية كانت توحِي إلى كبار مرتلي بني إسرائيل. كانت توحِي إلى أيوب، وإشعْيا، وإرميا، وحِزْقيال. وأقدم المزامير أسنى من غيره بدرجات. والمزامير وُضِعتْ، لا ريب، تحت الخيمة، قبل الاستقرار النهائي بفلسطين.

وعند بني إسرائيل، أسفرَ الشعرُ الغنائي- الممتاز جدًّا لدى جميع الأمم الساميَّة، عن آثار لا مثيل لها. وعلى ما تراه من تنوع فروع الأدب الأخرى عند بني إسرائيل، لا تعدل هذه الفروع ذلك الشعر الغنائي أبدًا، وإذا كانت فروع الأدب تلك عزيزة علينا، فلما لم تترك الأمم المنتسبة إلى الحضارات من المدونات بمقدار ما كتبه اليهود.

وتشتمل أسفار الكتاب المقدس، وهي لا تمثل سوى قسم من آثار بني إسرائيل الأدبية، على نماذج لمعظم الأنواع التي مارستها الروح البشرية.

وفي التوراة، تبصر التاريخ والأساطير، والأقاصيص الخيالية، والقصائد الرعائية، والقطع الروائية، والنبذ التعليمية، والأناشيد الدينية، والأغاني الحربية، والقصائد الغزالية، والمجموعات الحكمية والنَّسَبيَّة والشرعية إلخ.

فننظر إلى ذلك نظرةً خاطفة.

وأهم الأسفار التاريخية هي أسفار: القضاة، والملوك، والأخبار، وأسْتير، ونَحَمْيا، والمكَّابيِّين.

وأما أسفار موسى الخمسة، التي كانت تصنف بين تلك الأسفار فيما مضى، فتتألف من أساطير كلدانية، ومن عدة قوانين دقيقة، يرجع نشوؤها وتطبيقها

إلى زمن أحدث من الزمن الذي وُصِف في سفر التكوين وسفر الخروج. وكُتبت تلك الأسفار الخمسة في عهد الملوك. ويمتاز سفر التثنية، الذي هو أحد تلك الأسفار، والذي هو أحدثها، من بقية تلك الأسفار بروحه المثالية.

وليس من الممكن عَدُّ موسى مؤلفًا لتلك الأسفار الخمسة فقط، بل إن موسى شخص أسطوريٌّ أكثر من كونه شخصًا تاريخيًا، أي إن ذاتيته رُتبت كما رتبت ذاتية بُدَّهَة (بوذا) بعد حين[٢٧٢].

ومما يُلاحَظ في جميع الأسفار الإسرائيلية، التي تعد كتبًا تاريخية، ميل ظاهر إلى استخراج نظرية من انتظام الحوادث. وهذه الأسفار لم تكتب لحفظ ذكرى الوقائع الممتعة فقط، بل كانت غايتها إثبات شيء. وهذه الأسفار جميعها إذ وُضعت بصيغة الجزم، بدا حسن النية فيها هزيلا.

وما تركه العبريون لنا من تاريخهم، فقد دونه أحبارٌ ملكيون، كانوا يهدفون إلى نصر مبدأ الحكومة الملكية الإلهية.

وكان هؤلاء لا يألون جهدًا في إظهار بني إسرائيل مسوسين من إلههم القومي يهوه، الذي يعد القضاة أو الملوك مترجمين مفاوضين له بكثرة ودالة، وكل عصيان ليهوه كان يؤدي إلى جزاء فوري، وكل تقوى نحوه كانت توجب أعظم رخاء[٢٧٣].

وكان يصعب على المؤلف إذا ما تناول الحوادث الحديثة المعروفة جدًا أن يشوهها تشويهًا كليًا؛ فيكتفي بجعل تفسيرتِه التي يُميلها الهوى ملائمة لها.

---

[٢٧٢] يقصد الكاتب أن إضافات كثيرة الحقت في رسم شخصية موسى. أتت بقصد تقديسه من قبل المؤمنين به. فلا يستطيع هو بفكره المادي أن يصدق جميع التفاصيل التي أوردها هؤلاء عن شخصه. ونرشد الكاتب وكل حائر إلى المصدر الموثوق عن جميع أنبياء الله وكتبه، وهذا المصدر إلهي، وهو القرآن الكريم. يقول الله فيه: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [النمل: ٧٦].

[٢٧٣] التثنية ٢٩:٢٣ "كبريت وملح. كلُّ أرضها حريق، لا تزرع، ولا تنبت، ولا يطلع فيها عشب ما، كانقلاب سدوم وعمورة، وأدمة، وصبوييم، التي قلبها الرب بغضبه وسخطه. ٢٤ ويقول جميع الأمم: لماذا فعل الربُّ هكذا بهذه الأرض؟ لماذا حموُ هذا الغضب العظيم؟ ٢٥ فيقولون: لأنهم تركوا عهد الرب، إله آبائهم- الذي قطعه معهم، حين أخرجهم من أرض مصر ٢٦ وذهبوا، وعبدوا آلهة أخرى، وسجدوا لها. آلهة لم يعرفوها، ولا قسمتْ لهم. ٢٧ فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض؛ حتى جلب عليها كل اللعنات المكتوبة في هذا السفر".

ويمكن أن يُعتمَد، تقريبًا، على كتاب اليهود في معظم تاريخ بني إسرائيل بعد شاول، وتتجلى مزيتهم الكبيرة، ولكن مع غير شعور، في حفظهم لنا حفظًا صحيحًا وصف المجتمع الذي تمت فيه الحوادث، لا هذه الحوادث على الدوام.

وتجد جميع معتقدات اليهود في أسفارهم، حيث أوْدِعَتْ منذ عدة قرون، ولكن حيث كان عمى الوساوس الدينية يحول دون رؤيتها.

وظلت أوربة النصرانية، زمنًا طويلا، تقرأ كتب مؤرخي اليهود بالروح التي أرادها هؤلاء المؤرخون، وما وده أولئك المؤرخون من تمويه على معاصريهم، ارتضاه أمثال: **أغوستِن، وبَسْكال، وبُوسُويه، وشاتوبريان**، أكثر من ارتضاء ذلك الشعب الجاهلي المتعصب، الذي حاولوا إقناعه.

وكتاب اليهود- إذا **لم يكونوا مؤرخين صادقين**- كانوا وَصَّافين أوفياء، ومِن الوثائق التي لا يعدل قيمتها شيءٌ، ما أتوا به من الأوصاف الساخطة حول وثنية بني إسرائيل المتأصِّلة، والأوصاف الساذجة للطبائع الرعائية، وسلاسل الأنساب التي لا حدَّ لها، وسمات الأخلاق الهائجة!

ومن الناحية الأدبية، عَرَضوا علينا صفحاتٍ جميلة إلى الغاية. وتعد فصول سفر التكوين الأولى أثرًا ممتازًا للعظمة والبساطة. وعلى هذا الوجه، وبمثل هذا العرض، وهذه اللغة- يمكن للمرء أن يتمثل بدء **الرواية البشرية الكبرى**.

وإذا كان الأساس كلدانيًا، فإن الشكل عبري. وكان لابد من قناعة السامي لوصف تلك المبادئ الهائلة في بضع كلمات، ومنحها- حتى بالوسائل الساذجة، مظهرًا غريبًا من ظاهر الحق والحياة.

وبجانب أسفار العبريين التاريخية والخرافية، تجد القصة الصرفة التي لا يُزعم صدقها، والتي لا يُبالَى فيها بالغلط التاريخي، والتي لا غاية لها سوى افتتان القارئ، وثقافته الخلقية في بعض الأحيان.

وحَذَق كتاب اليهود ذلك النوع، فأشربوه حياة وطبيعة وفتنة في الجزئيات على وجه خاص.

وإذا عدوتَ ما قد تشعر به من اللذة في قراءة تلك الأقاصيص المؤثرة أو الفاجعة، كقصة يَهوديت[٢٧٤]، ورَاعُوت، وطُوبيًا[٢٧٥]، وأستِير[٢٧٦]... إلخ، وجدتها تشتمل على تفصيلات مهمَّة عن الطبائع، وذلك كالوَسْواس الذي يساور يَهُوْدِيت، مع استعداد لاقتراف جُرْم القتل، حَوْل أكل لحوم الحيوانات التي لم تُذبح وفق الطقوس. وذلك كالوجه الذي دعتْ به راعوتُ، بُوْعَزَ، أقرب إنسان إلى زوجها، فوجبَ من حيث النتيجةُ أن يتزوجها بوعز ذلك وَفقَ شريعة إسرائيل، على الرغم من الفرق العظيم في مقاميهما، الذي يجعل تلك الفتاة كثيرة الخجل.

وقصة راعوتَ هذه من أطرف الأقاصيص الرعائية التي كُتبت[٢٧٧].

وإنَّ خُلق تلك الباسلة الناعمُ الخليُّ المحتشم، وإنَّ خُلق بُوعَزَ النبيلَ المستقيم الصادق، وإن غَمَّ نُعْمِي الممزوجَ بالتسليم، مما صُوِّر بسلامة ذوْق، ورقة صنعة، فيلوح أنه آخرُ كلمة للفن، وإن السهول المثقلة بالسنابل الذهبية، مع نشاط الحاصدين الجافي، وراحتهم بعدئذ تحت السماء ذات الكواكب، وفي جلال ليالي الشرق- مما عُرض كدائرة للقصة[٢٧٨].

---

٢٧٤ سفر يهوديت: من الأسفار غير القانونية. يحكي قصة فريسية خيالية، بطلتها أرملة يهودية جميلة اسمها يهوديت. عندما حُوصرت مدينتها؟ أخذت خادمتها، ومعها طعام يهودي طاهر؟ وذهبت إلى خيمة القائد المهاجم؟ فراعه جمالها، وأعطاها مكاناً في خيمته. وعندما سكرَ، قطعت رأسه بسيفه؟ وغادرت المعسكر مع خادمتها، ومعها الراس في سلة؟ فعلقوه على سور مدينة قريبة؟ وهكذا انهزم الجيش الآشوري، الذي أعوزته القيادة.

٢٧٥ يوجد سفر باسم طوبيا. وهو من الأسفار غير القانونية. ولطوبيا ذكر في سفر نحَميا.

٢٧٦ أستير لها سفر باسمها يحكي قصتها.

٢٧٧ راعوث لها سفر باسمها يحكي قصتها.

٢٧٨ يروي لنا سفر راعوث، أن سيدة اسمها نعمي، أجبرت- مع زوجها وابنيها، بسبب المجاعة في فلسطين- على السفر للعيش في بلاد موآب، حيث تزوج الابنان. وبعد سنوات قليلة، مات زوجها وابناها، تاركين ثلاثة أرامل. وعندما علمت نعمي أن المجاعة انتهت في بلادها، قررت أن تعود إليها، وبقيت أرملة أحد الابنين في موآب، أما الثانية (واسمها راعوث)، فقد تعلقت بحماتها، وأصرَّت على أن ترافقها إلى وطنها. فعادت الأرملتان معًا إلى بيت لحم. وكانت شريعة موسى تعطي نعمي الحق في استعادة أرضها، التي تركتها قبل أن تهاجر إلى موآب، كما كان من حق راعوث أن ترث أرض زوجها المتوفي. وكان على الأرض رهن، ولم تقدر نعمي وراعوث على افتداء أرضهما؛ لأنهما لا تمتلكان مالاً تفتديانها به، فكان لابد من وجود قريب، أو ولي لهما يعاونهما على فك الأرض وفدائها. وقد نهض قريب ولي اسمه "بوعز" بهذا. وكانت الشريعة تقضي بأن يتزوج هذا الولي من راعوث. وكانت شخصية راعوث المضحية، التي تمسكت بصحبة حماتها،

ومن الطرافة: أن ينتج اليهود آدابًا خفيفة عاطفية، ذات عفاف على الرغم من تحللهم. وما عندهم من أخبار الدعارة، تجده في تاريخهم الخاص، لا في كتبهم التي هي وليدة الخيال الخالص.

وتجدُ سفرَ نشيد الأناشيد، الذي هو أكثر أسفارهم شهوانية، يصف أشد الغرام بعبارات شعرية، أكثر منها شبقية. وليست لذة الحواس وحدها هي موضوع هذا الشعر الفتان. وهذا الشعر يأخذ بمجامع القلوب- على حسب التعبير المألوف. وفي هذا الشعر ترى سُلامِيَّة عاشقة رقيقة متوقدةً معًا، وترى التعبير عن نار الرغبة فيها مُقيّدًا بصور، تُنقذ بها وعورة بعض الميول[٢٧٩].

ولم يَجد الحبُّ المُنَغَّص من النبرات المثيرة في أيِّ كتاب، مثل ما في سفر نشيد الأناشيد، ولم يُستر الوَلوعُ العنيف بأرق الصور في أي كتاب، مثل ما في سفر نشيد الأناشيد.

وسفر نشيد الأناشيد هو أجمل ما انتهى إلينا من الشعر الغرامي السامي. أجَلْ إن الآثار التي هي من هذا الطراز غير قليلة لدى العرب، الذين لم يتغنوا بغير المرأة والجياد والملاحم، غير أن الحواس هي التي كانت تستحوذ على هؤلاء، فلا تكاد ترى في شعرهم الخيار والتفضيل، أي المشاعرَ، بل كانوا يصنعون ما يثير اللذات، فتبدو لهم كل امرأة حسناء، إذا كانت فتاة حسنة الخلقة.

وفي سفر نشيد الأناشيد، تُبْصر بالعكس، أن سُلامية وراعيها كانا يتحابان حبًا خالصًا، فيألمان كلما تباعدا. ومن المحتمل أن يكون هذا المبدأ، الذي هو أقرب إلى الشعور الروائي في أيامنا منه إلى النعيم الحسي الشرقي الأعمى،

عاملاً على جذب بوعز إليها، فتزوجها مؤيدًا من كل قادة المدينة.

[٢٧٩] نشيد الأناشيد ٧:١ "ما اجمل رجليك بالنعلين، يا بنت الكريم! دوائر فخذيك مثل الحُلي، صنعة يدي صناع.٢ سرتك كاس مدورة، لا يعوزها شراب ممزوج. بطنك صبرة حنطة، مسيجة بالسوسن. ٣ ثدياك كخشفتين توامي ظبية. ٤ عنقك كبرج من عاج. عيناك كالبرك في حشبون، عند باب بث ربيم. انفك كبرج لبنان، الناظر تجاه دمشق. ٥ راسك عليك مثل الكرمل، وشعر راسك كارجوان. ملك قد اسر بالخصل. ٦ ما اجملك! وما احلاك! أيتها الحبيبة باللذات! ٧ قامتك هذه شبيهة بالنخلة، وثدياك بالعناقيد. ٨ قلت: إني اصعد إلى النخلة، وامسك بعذوقها. وتكون ثدياك كعناقيد الكرم، ورائحة انفك كالتفاح ٩ وحنكك كأجود الخمر- لحبيبي السائغة، المرقرقة السائحة على شفاه النائمين ١٠ أنا لحبيبي، وإليَّ اشتياقه".

أبرز ما في ذلك الشعر الغرامي.

وأرادت الكنيسة النصرانية أن ترى في ذلك النشيد الغرامي الولهان، أثرًا في الأخلاق الزاهدة، مصورًا ضروب النعيم عند الاتصال الوثيق بالله!

ولا نرى مثالا أبرز من ذلك على روحية الأحكام البشرية، وقد خُلقت نساءٌ طاهراتٌ زاهدات في قرون، ليُفكّرْن في صوْغ جُمل متأججة كالجمل الآتية:

"في الليالي، على مَضْجَعي، التمستُ مَن تحبه نفسي، التمسته فما وجدتُه"[280].

"... هَلُمَّ يا حبيبي! لنخرج إلى الصحراء، ولنبتْ في الضّياع، فنُبكّرَ إلى الكروم، وننظر هل أفرخَ الكرمُ؟ وهل تفتحت زهوره؟ وهل نور الرمان؟ وهنالك أبذل لك حبي"[281].

ولا يعوز الآداب اليهودية آثار خلقية خالصة، مستقلة عن التصانيف الدينية الكبيرة، فيُعَدُّ بعضُ الأسفار، كسفر الأمثال، وسفر الجامعة، وسفر الحكمة، مجموعات أمثال عملية، معدّة لتوجيه سير الحياة، ولكن من غير كبير صلة بالآلهة، مهما كان نوعها.

والروح العامة في تلك الأمثال هي أبيقورية[282] ارتيابية، وما فيها من قول مؤكد بأن أوضح واجب علينا هو أن نتمتع بالحياة العتيدة؛ لعدم وجود شيء وراءها، وبأن من الجنون أن يُضحى بالساعة الراهنة في سبيل أوهام باطلة، لم يسبقه ما أتى به أناكريون[283]، وهوراس[284] في العالم الوثني القديم.

وفي تلك الأسفار، ترى درجة عَطَل اليهود من كل أمل فيما وراء القبر.

---

[280] نشيد الأناشيد ١:٣.
[281] نشيد الأناشيد ١١-١٢: ٧.
[282] أبيقور (٣٤١-٢٧٠ ق.م): فيلسوف يوناني. أسّس المدرسة الأبيقوريّة. أطروحته الأساسيّة تتمثّل في أنّ اللذّة هيّ الخير الأسمى، وهي "غاية الحياة السّعيدة".
[283] أناكريون: شاعر إغريقي، عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وعمّر أكثر من ١١٥ عامًا. وقد أطلق عليه شاعر الحب والخمرة.
[284] هوراس (٦٥-٨ ق.م): كان شاعرًا غنائيًا، وناقدًا أدبيًا لاتينيًا، من رومانيا القديمة، في زمن أغسطس قيصر. أصر هوراس على أن الشعر يجب أن يقدم السعادة والإرشاد. وعرف بالقصائد الغنائية، والمقطوعات الهجائية.

جاءِ في سفر الجامعة القول الجافي الآتي:

"إن الكلب الحي، خير من الأسد الميت"[285].

ولا تجد في سفر الأمثال، كما أنك لا تجد في سفر الجامعة، قولا عن نظرية الكتاب في عدل يهوه بعد هذه الدنيا، فيكافئ الأبرار، ويجازي الأشرار.

جاء في سفر الجامعة:

"يوجد صدّيقون يصيبهم مثلُ عمل الأشرار، ويوجد أشرار يُصيبهم عملُ الصديقين"[286].

وفي كل زمن، كان لمجموعات الأمثال أهمية عظيمة في آداب كل أمة، وذلك لما تؤدي إليه من النفوذ في فكرها الصميمي.

ولم تشذ أمثالُ بني إسرائيل عن ذلك.

ولسنا هنالك أمام عمل مقرَّر، قائل بنشر ما يصعب قبوله من الحقائق، ولسنا هنالك أمام رؤى الأنبياء العظيمة الشخصية.

ومن خلال تلك الأمثال، التي لم تكن من وضع رجل واحد، والتي كانت تتداولها الأفواه، فتتكاثف فيها تجربة طويل القرون، نُبْصر فكرَ بني إسرائيل الحقيقي.

وكان ذلك الفكر نفعيًا عمليًا، وهو الفكر الذي سيطر على شعب إسرائيل منذ دَوْر الفتح، منذ الزمن الذي عَلِمَ فيه هذا الشعبُ الشهوانيُّ قيمة جميع خيرات الأرض، فجعلته متحرِّزًا ماهرًا، طامعًا جشعًا في الربح، ضيِّقًا في آفاقه، غير مستعد للتضحية بفائدة الساعة الحاضرة، في سبيل منافع حياة قادمة غير محققة، وفي سبيل أنعُم إلهٍ مثيب.

"... الحكيم يخاف فيجتنب الشر، والسفيه من يسير على غير ذلك"[287].

---

[285] الجامعة ٩:٤.

[286] الجامعة ٨:١٤ "يوجد باطل يجرى على الأرض: أن يوجد صديقون يصيبهم مثل عمل الأشرار. ويوجد أشرار يصيبهم مثل عمل الصديقين. فقلت: إن هذا أيضًا باطل".

[287] أمثال ١٤:١٦ "الحكيم يخشى، ويَحيد عن الشر. والجاهل يتصلف، ويثق".

"... الغني يكثر الأخلاء، والفقير يفارقه خليله، وجميع إخوة المُعوِز يُبغضونه"[288].

"... في كل تعب منفعة، وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر"[289].

"... اذهب إلى النملة- أيها الكسلان، تأمل طرقها، وكن حكيمًا"[290].

"... العامل بيد رخوة يَفتقر، أما يدُ المجتهدين فتُغني"[291].

"... مَن يجمع في الصيف، فهو ابنٌ عاقل. ومَن يَنَمْ في الحصاد، فهو ابنٌ مُخزٍ"[292].

"... توجد طريقٌ تظهر للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت"[293].

وتمتدح الأمثال نوعًا من الحكمة، ليس سوى الحذر الدنيوي، ولكن مع سموه أحيانًا كما يبدو. ومن ذلك:

"قليل مع عدل، خير من كثير مع جور"[294].

بَيْدَ أنّ سِفرَ الجامعة أكثر ارتيابًا، فقد جاء فيه:

"قلتُ في قلبي: إن الذي يَحدُثُ، أهَلْ يَحدث لي أنا أيضًا؟ إذن، فلِمَ حِكْمتي هذه الوافرة؟ فقلت في قلبي: هذا أيضًا باطل!"[295].

وقد خُلِطَ سِفرُ الجامعة بالملك سليمان عن غلط يتعذر إدراكه، فلا شيء يبتعد عن ذلك السفر العسير العميق، أكثر مما نعرفه من حياة هذا الملك وأخلاقه. وإذا كان واضع ذلك السفر قد أجرى أقواله على لسان ذلك الملك القوي؛ فلافتراضٍ جارٍ في الآداب؛ ولرغبة ذلك المؤلف في مضاعفة الوزن. والرجلُ

---

[288] أمثال ٢٠:١٤ "أيضًا مَن قريبه يبغض الفقير، ومحبو الغني كثيرون. ٢١ مَنْ يحتقر قريبه يخطئ. ومَن يرحم المساكين، فطوبى له!".

[289] أمثال ٢٣:١٤.

[290] أمثال ٦:٦.

[291] أمثال ٤:١٠.

[292] أمثال ٥:١٠.

[293] أمثال ١٢:١٤.

[294] أمثال ٨:١٦ "القليل مع العدل، خيرٌ من دخل جزيل بغير حق".

[295] جامعة ١٥:٢ "فقلت في قلبي: كما يحدث للجاهل، كذلك يحدث أيضًا لي أنا. وإذ ذاك: فلماذا أنا أوفر حكمة؟! فقلت في قلبي: هذا أيضًا باطل!".

لكي يدّعي بأنه أزال وهمَه عن كل شيء في هذا العالم، يجب عليه أن يعرف كل شيء، كالغِنَى والسلطان، وجلال العرش، وأبَّهة القصور، وملَق[٢٩٦] الرجال.

جاء في سِفر الجامعة:

"كنت ملكًا... فزدتُ عظمة ونموًا على جميع الذين كانوا قبلي.... وجَمَعْتُ لي فضة وذهبًا مع أموال الملوك والأقاليم... وكل ما ابتغته عيناي لم أدعه يفوتهما، ولا منعتُ قلبي من الفرح شيئًا..... فإذا الجميع باطل"[٢٩٧].

ولم يشتمل سفر الجامعة على جميع ما يرنو إليه أقصى الطموح من المحاسن فقط، بل يشتمل أيضًا على بصيرة واسعة، فقد نَفذ إلى أساس الحكمة البشرية.

فمما جاء في سفر الجامعة:

"رأى قلبي كثيرًا من الحكمة والعلم، ووجَّهتُ قلبي لمعرفة الحكمة، والجنون والحماقة"[٢٩٨].

وبطلُ ذلك السفر، وهو مؤلفُه- كاملٌ، فلا يُعْوِزه شيء، وهو يملك كلَّ ما يجوز دعوته بالسعادة، سواءٌ أمِنَ الناحية الذهنية، أم الناحية الجثمانية!

وإليكَ كيف يرجعُ إلى نفسه، فيسألها وهو أوْجُ[٢٩٩] السلطان، وذروة العلم الإنساني، وهو في سواء[٣٠٠] ألذّ الشهوات:

هل بلغ الغاية التي وُجِدَ من أجلها في العالم؟

أفيَعرفُ هذا الهدف وحده؟

ما هو أساس جميع الأشياء؟ آلشرور؟

---

[٢٩٦] ملق: تملّقه وله تملّقا وتِمِلاّقا: توَدّدَ إليه، وتلطفَ له. والملَق محرّكة: الوُدُّ واللُطفُ، وانْ تُعْطِيَ باللسان ما ليسَ في القلبِ (القاموس المحيط مج١، ص ١١٩٣).

[٢٩٧] جامعة ٨-١١: ٢.

[٢٩٨] جامعة ١٦:١ "أنا ناجيت قلبي قائلا: ها أنا قد عظمتُ، وازددتُ حكمة أكثر مِن كل مَن كان قبلي على أورشليم. وقد رأى قلبي كثيرًا من الحكمة والمعرفة ١٧ ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة، ولمعرفة الحماقة والجهل. فعرفتُ أن هذا أيضًا قبض الريح!".

[٢٩٩] اوج: ضِدُّ الهُبوط (القاموس المحيط ٢٣٠/١).

[٣٠٠] سواء: وسط.

أصاحب سفر الجامعة سعيد؟

جاء في سفر الجامعة:

"قلت في قلبي من جهة أمور البشر: إن الله يمتحنهم ليُريهم أنهم كالبهائم، لأن ما يَحدُث لبني البشر هو يَحدُث للبهيمة وللفريقين، حادثة واحدة، كما تموت هي يموت هو، ولكليهما روحٌ واحدة، فليس للإنسان فضل على البهيمة؛ لأن كليهما باطل. كلاهما يذهب إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب، وكلاهما يعود إلى التراب"[٣٠١].

ولكن الأمر ليس كذلك تمامًا، فلا يشابه الإنسان الحيوان مشابهة تامة؛ لأن الحيوان يأكل، ويتمتع بجميع حواسه، ويموت هادئًا غيرَ شاعر، وإنما يحمل الإنسان في نفسه بذرة الألم الخفيّ الخالد[٣٠٢].

وصاحبُ سِفر الجامعة إذ عَرَف أكثرَ من كلّ إنسانٍ ذلك الغمّ الغريب، والأملَ القاهر، والهمّ من العدم، رفع صوته متحسرًا قائلا:

"في كثرة الحكمة كثرةُ الغُمّة. ومن ازداد علمًا، فقد ازدادَ غمًّا"[٣٠٣].

وتنحصر أخلاق صاحب سفر الجامعة، والنصيحة التي يسوقها إلينا- في تقريبنا، إذا أمكن، من دائرة اللاشعور الموحشة الهادئة، وفي طرْدنا من نفوسنا كلّ همّ حول ما هو عادلٌ أبدي غير محدود، وفي إغماض عيوننا، وجعْل أصابعنا في آذاننا، وخنق الصوت المقطوع الرجاء في قلوبنا، والتمتع بالأمور المحسوسة الملموسة، التي نستطيع بها قضاء أوطارنا[٣٠٤] الجثمانية، ومدارة كبريائنا.

---

[٣٠١] جامعة ١٨-٢٠: ٣.

[٣٠٢] كان القرآن واضحًا حين صور الشخص غير المؤمن بالحيوان، دون المؤمن. يقول الله ﷻ: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف: ١٧٩]. ويقول سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) [محمد: ١٢].

[٣٠٣] جامعة ١٨:١. وأما القرآن الكريم فعلمنا أن ندعو: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طه: ١١٤].

[٣٠٤] أوطار: جمع وَطر. وهو الحاجة.

جاء في سفر الجامعة:

"ليس للإنسان خيرٌ من أن يأكل ويشرب، ويُرِىَ نفسَه خيرًا في تعَبه. رأيتُ هذا أيضًا: أنه من يد الله"[٣٠٥].

"..... والأحياء يعلمون أنهم سيمُوتون، أمَّا الأموات فلا يعلمون شيئًا، وليس لهم من جزاء بعد؛ إذ قد نسي ذكرهم"[٣٠٦].

"حبُّهم وغيرتهم قد هلكتْ جميعًا، وليس لهم حظ بعْدُ إلى الأبد، في شيء مما يجرى تحت الشمس"[٣٠٧].

"فاذهب! كُلْ خبزك بفرح، واشربْ خمْرك بقلب مسرور.... ولتكن ثيابك بيضًا في كل حين، ولا يُعوز رأسك الدهن"[٣٠٨].

"تمتَّع جميعَ حياتك الفانية بالعيش مع المرأة التي أحببتها، وأوتيتَها تحت الشمس لتقضي أيامك الفانية، فإن ذلك حظك من الحياة.... فليس من عمل، ولا اختراع، ولا معرفة، ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها"[٣٠٩].

تلك هي النصائح التي يأتي بها صاحب سِفر الجامعة، ويُستشف من اللهجة التي ذكرها بها، أنه يحسد بحرارة مَن يَقدر على العمل بها.

وذلك لأنه يشعر أكثر من أي شخص آخر، بأنه مُقيَّد بالغموم والرغائب التي يكافحها، ويسحقها ويسخر منها فاترًا حاقدًا؛ ولأنه يمقت ذلك العدم الذي يُبصره حَذِرًا مذعورًا؛ ولأنه لم يتذوق بسلام المسرات المادية التي يمدحها، وهي مسممة عنده بالسؤال: "لماذا؟"- الخالدِ، الذي يؤذي أنبل النفوس منذ قرون

---

[٣٠٥] جامعة ٨:١٥ "فمدحتُ الفرحَ؛ لأنه ليس للإنسان خيرٌ تحت الشمس، إلا أن يأكل، ويشرب، ويفرح. وهذا يبقى له في تعبه، مدة أيام حياته، التي يعطيه الله إياها تحت الشمس".

[٣٠٦] جامعة ٩:٥.

[٣٠٧] جامعة ٩:٦ "ومحبتهم وبغضتهم وحسدهم هلكتْ منذ زمان، ولا نصيبَ لهم إلى الأبد، في كل ما عمل تحت الشمس".

[٣٠٨] جامعة ٩:٧ "اذهب. كُلْ خبزك بفرح، واشربْ خمرك بقلب طيب؛ لان الله منذ زمان قد رضي عملك. ٨ لتكن ثيابك في كل حين بيضاء، ولا يعوز رأسك الدهن".

[٣٠٩] جامعة ٩:٩ "التذّ عيشًا مع المرأة التي احببتها كل ايام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس، كل ايام باطلك؛ لان ذلك نصيبك في الحياة، وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس. ١٠ كلُّ ما تجده يدك لتفعله، فافعله بقوتك؛ لأنه ليس من عمل، ولا اختراع، ولا معرفة، ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها".

كثيرة.

جاء في سفر الجامعة:

"قلت: للضحك فيكَ جنونٌ، وللفرَح ماذا تنفع؟"[310].

"..... قلت في قلبي: إن الذي يَحدث للجاهل، يَحدث لي أيضًا. إذنْ فلِمَ حِكْمتي هذه الوافرة؟ فقلتُ في قلبي: هذا أيضًا باطل"[311].

"فإنه ليس من ذكر للحكيم وللجاهل كليهما إلى الأبد، إذ في الأيام الآتية كل شيء يُنسى، وأسفا، يموت الحكيم كالجاهل"[312].

"فكرِهتُ الحياة؛ إذ ساءني العملُ الذي يُعْمَل تحت الشمس؛ لأنه كله باطلٌ وكآبة الروح"[313].

ومذاهب التطور التي أُولِعَ بها فلاسفة زماننا[314]، مما كان صاحب سفر الجامعة قد أبصره، فلم تجد سوداؤه[315] فيه سلوانًا.

وذكَرَ صاحب سفر الجامعة: أنه إذا لم يَقتطف في هذه الحياة الدنيا ثمرة آثاره؛ فإنه يتركها ميراثًا للأجيال القادمة، وأنه إذا لم يَهلك تمامًا، فلِما يراه من بقاء فكره بعده، وأن الفرد إذا ما بادَ، فإن البشرية تظل حيَّة متقدمة، وأنه لا يَضيع أي عمل عظيم، ولا أي جهد، وأنه لا عاملَ كثير الخضوع.

ولم يكفِ ذلك الفكرَ عنده أن يُعوِّض الإنسان من كرْب الحياة العظيم، ومِن مداجاتها[316]، فقد قال:

---

[310] جامعة ٢:٢ "للضحك قلت: مجنون. وللفرح: ماذا يفعلُ؟!".

[311] جامعة ٢:١٥.

[312] جامعة ٢:١٦ "لأنه ليس ذكرٌ للحكيم ولا للجاهل إلى الأبد. كما منذ زمان، كذا الأيام الآتية: الكلُّ يُنسى! وكيف يموت الحكيم كالجاهل؟!".

[313] جامعة ٢:١٧ "فكرهت الحياة؛ لأنه رديءٌ عندي العمل الذي عُمل تحت الشمس؛ لان الكلَّ باطلٌ، وقبضَ الريح".

[314] مذاهب التطور: هي مذاهب فلسفية، تدور حول التطور في الطبيعة والمجتمع. منها الفلسفة الديالكتيكية الهيجلية، والفلسفة الماركسية المادية.

[315] سوداؤه: السوداء هنا معناه التشاؤم.

[316] مداجاتها: المداجاة المداراة والملاينة. ويقال: دَاجَاهُ، إذا داراه، كأنه ساتره العداوة (مختار الصحاح، ص ٢١٨).

"وكرهتُ جميعَ ما عانيتُ تحت الشمس مِن تعبي؛ لأنني سأتركه لإنسان يَخلفني"[٣١٧].

"ومَن يدري: هل يكون حكيمًا، أو أحمقَ، مع أنه سيستولى على كل عملي الذي أفرغت فيه تعبي وحكمتي تحت الشمس، هذا أيضًا باطل"[٣١٨].

وإليكَ نتيجة ذلك السفر، الذي لا يَعْدُلُهُ كتابٌ برودةَ تشاؤم:

"غَبَطتُ الأموات، الذين دَرَجوا مِن قبلُ على الأحياء، الذين همْ باقون حتى الآن. وخيرٌ من كليهما، مَنْ لمْ يوجَد حتى الآن؛ لأنه لم يَرَ العملَ الشريرَ الذي يفعله تحت الشمس"[٣١٩].

تلك هي آخر كلمة لصاحب سفر الجامعة. ولا تظن أنه خَرَج من فِيْهِ الكلامُ النهائيُ الآتي، الذي تسرَّب في سِفره بتحشيةٍ صادرة عن تقوى، فجاء مُكذِّبًا له بأسره:

"اتق الله! واحفظْ وصاياه! فإنَّ هذا هو الإنسانُ كلُّه"[٣٢٠].

وليس ما فرَغنا من تحليله أثرَ تسليم تقي، **وليس ذلك صوتَ تمرُّدٍ إلحادي، ما دامَ التمردُ غرورًا. وليس ذلك تجديفًا، بل هو أسوأ من ذلك كله؛** وذلك لأنك تجد الشهوة والحياة في الألم الساخط، وفي التجديف، فيكون هذا كأمل خفي، يُرَى مِن مخاطبة مَن يسمع بكلام الغضب.

وسفر الجامعة مِن أمَرِّ الإنكارات التي نطق بها كلُّ ذي شفتين، فهو أنشودة قنوط المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي، وهو ينفع كتابة قبر للجنس البشري، حينما تسجَّى الأرضُ الخالية من سكانها الأخيرين تحت كفن من الجليد.

والذي سَتَرَ حتى يومنا هذا، ما في ذلك السفر الباقي من الواقعية الباردة،

---

[٣١٧] جامعة ٢:١٨.
[٣١٨] جامعة ٢:١٩.
[٣١٩] جامعة ٢-٣: ٤.
[٣٢٠] جامعة ١٢:١٣.

والطيَرة القاتمة، هو ذلك الشعورُ الدينيُّ الذي ما انفك يُشوِّه التوراة منذ ألفي سنة. فإذا ما تخلصَ المرءُ من الأباطيل المتأصلة، استمعَ إلى سفر الجامعة، منقبض الصدر بما يفوق الوصف. وأيَّة فلسفة، أو أيُّ أملٍ يقاومُ هذا التحليلَ الهائل؟

والذي يُمسك البشرية فوق العدم هو حبُّ الاطلاع، لا سرورُ الحياة- على رأي ذلك الكاتب الكئيب:

"جميعُ الأنهار تجري إلى البحر، والبحرُ ليس بملآن... لا تَشبَع العين من النظر، ولا تمتلئ الأذن من السماع"[٣٢١].

وإذ ليس من الممكن أن يكون هذا الشعور أجوفَ، فارغًا غير مثمر، أضافَ صاحبُ سفر الجامعة إلى ذلك قوله:

"ما كان فهو الذي سيكون؛ وما صُنِعَ فهو الذي سيُصنع؛ فليسَ تحت الشمس شيءٌ جديد. رُبَّ أمرٍ يُقال عنه: انظرْ! هذا جديدٌ؛ فهو قد كان في الدهور التي سلفتْ قبلنا"[٣٢٢].

ويُعَدُّ سفرُ أيوبَ عذبًا معزّيًا، بجانب سفر الجامعة.

بَيْدَ أن ما في القسم الأول من سفر أيوب من الضيِّق الخُلقي الكريه، لا يُداوي إلا بثقة عمياء بالله. وعند مؤلف هذا السفر: أن ما يمكننا أن نناله من السكينة، هو العُدولُ عن البحث، وفي العُدول عن الفهم، وفي الإذعان للسنن التي تُسَيِّرُ مصايرَنا، مِن غير حُبٍّ شديد للاطلاع، ومِن غير تذمُّر.

وبأي دمٍ بارد! وبأي إصرار! وبأي حِذق! وبأي بَصَر حديدٍ استبَرَ[٣٢٣] متشائمو اليهود- أولئك- جروحَنا الأبدية؟!

لمَّا يَجِدِ العلمُ ما هو مُقرَّر في الجواب عنهم، مع انقضاء ما يزيد على ألفي

---

[٣٢١] جامعة ٧-٨: ١.
[٣٢٢] جامعة ٩-١٠: ١.
[٣٢٣] استبر: افتعل من الفعل سَبَرَ. وهو امتِحَانُ غَوْرِ الجُرْحِ وغَيْرِه. يقال: سَبَرَ الجُرْحَ يَسْبُرُهُ، ويَسْبِرُهُ سَبْرًا: نَظَرَ مِقْدَارَه، وقاسَه ليَعْرِفَ غَوْرَه (تاج العروس، مج١، ص ٢٩١٦).

سنة!

إنَّ إلوهيم التقىَّ في سفر أيوب، وإن إلوهيم الشهواني في سفر الجامعة، قد اقتسما الناس لتعليلهم بالباطل، إن لم يكن لشفائهم. ولمَّا يُكتشف شيء أحسنُ من ذلك لسَوْق البشرية إلى مستقبل لم يُصنع من أجلها- على ما يُحتمل.

ولا يزال العالم منقسمًا بين التمتعيِّن، والمثاليين[٣٢٤]. أي بين أتباع سفر الجامعة، وأتباع سفر أيوب.

وترى في هذا العصر بعضَ المفكرين الذين أعياهم ذانك النجدان[٣٢٥]، فأخذوا يصنعون من المسائل، ما كان صاحبا ذيْنَك السِّفرين العِبريين قد جادلا فيهما بجرأة.

ولكن أين سَوْداؤنا مِنْ سَوْدائهم؟ وما هي طِيَرتنا الحديثة التي أقدمت على توكيد العدم في أيْلولةِ الأمور البشرية، كما وَكَّدوا بلا التواء وكلامٍ فارغ؟

وأين ذلك الذي أغلق أبوابَ الأمل أمام الإنسان بحزْمٍ مثلهم؟

ولا تُصلح قراءةُ مثل تلك الإسفار، ولولا تلطيف الشعور الديني لها، ولولا اشتمال الشعر الرائع عليها، لوجَبَ حصرَها في سرداب عميقٍ، وتكديس مداميك[٣٢٦] بعض الأهرام العظيمة فوقها؛ منعًا لسماع صوتها المؤلم؛ ودرءًا لتعطيلها قلب الإنسانية المسنة العاجز!

على أن ذلك السفر العجيب الموجع، سفر أيوب، يُعَدُّ من أنفس الآثار التي نشأت عن النفس البشرية.

---

[٣٢٤] تعد الفلسفة المثالية من أقدم الفلسفات في الثقافة الغربية. وقد ولدت على يد أفلاطون قبل الميلاد، وشاعت في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر. اسمها مشتقّ من المثال. ويعني في الإغريقية الصورة أو الفكرة. وتؤكد الفلسفة المثالية على دراسة الأهداف الأخلاقية السامية. وتقوم على تمجيد العقل والروح معًا. وتقلل من دور المادة. وتؤمن بأن العالم الذي نعيش فيه عالم فانٍ. ويقابله عالمٌ مثالي، لا وجود له على الأرض. ويؤمن المثاليون بوجود قيم ثابتة لا تتغير، ولا يجوز الشك في صحتها.

[٣٢٥] النجدان: الطريقان المطروقان.

[٣٢٦] مداميك:جمع مدماك. وهو الصف من الحجارة (مختار الصحاح، ص ٢١٨).

ولذلك السِّفر صورةُ روايةِ إشِيلَ[٣٢٧] الفاجعة. بَيْدَ أن هذا الشاعر اليوناني، لم يُحلق طويلَ زمنٍ في سماء عالية. ولا تجدُ أثرًا، مهما سما، قد أبدى وحدةً أتمَّ مما في ذلك السِّفر.

وفي تلك الرواية المحزنة، تجد خمسة أبطال: أيوب، وأصحابَه الثلاثَ، والربَّ.

ولا نتكلم عن أَلِيهُو، الذي لم تَعْدُ جميعُ أقواله حدَّ التحشياتِ، التي دُسَّتْ بعد زمن- كما هو ظاهر؛ وذلك تلطيفًا لصبغة السفر الفاجعة، التي يتكلفُ معها أليهو تكلفًا مطلقًا.

وأيوبُ هو الرجل الذي يألم، ويسأل: لماذا؟ والأصحابُ الثلاثة هم ممثلو المذهب الإسرائيلي المعروف، الذي يَزعمُ أن يَهْوَه يُكافئُ الأبرارَ، ويُجازي الأشرار، وأن كلَّ ألمٍ، يفترض ذنبًا سابقًا.

ولمْ يَجدْ أيوبُ عسرًا في إبطال ذلك المذهب، حتى إنه ذهب إلى أقصى العكس في سَوْرَة[٣٢٨] غضبٍ فقال مؤكّدًا: إن الأشرار وحدهم هم الذين يَنعَّمون في هذه الحياة الدنيا.

فقد قال صارخًا:

"لماذا يحيا الأشرار ويشيخون؟ ولماذا يَعظم اقتدارُهم؟ نسلهم قائمٌ أمامهم، وأعقابُهم لدى أعينهم، بيوتهم آمنة من الفزع، وقضيبُ الله لا يَعلوهم!"[٣٢٩].

ولمَّا طال الحوارُ بين أيوب وأصحابه بما فيه الكفاية، بدا الربُّ، وصرَّحَ

---

[٣٢٧] إشِيلَ: هو أخيل. بطل يوناني اسطوري، تميز بالشجاعة والإقدام. شارك في معركة طروادة بين اسبرطة اليونانية، وطروادة التركية. وقد روى هوميروس بعض أحداث قصة إشيل في الإلياذة. ففي إحدى مراحل المعركة، كان ملك طروادة، ويدعى فرايام، له ابنان. احدهما يدعى هكتور، والآخر اسمه باريس. وهذا الأخير كان قد خطف أميرة من أميرات اسبرطة، فأعلن الاسبرطيون الحرب على طروادة، وحاصروها. وفي إحدى جولات الحرب، تبارز أحد الاسبرطيين، ويدعى إشيل، مع ابن ملك طروادة المسمى هكتور، فغلبه إشيل وقتله، وقام بجره بواسطة حصانه، وربطه عند خيمته؛ إمعانا في التنكيل به، إلا أنه- وفي النهاية- قام باريس، أخو هيكتور، بتصويب سهمه نحو وتر إشيل، فمزقه فسقط أرضًا. ثم تمكّن باريس من أن يجهز عليه، وترك إشيل آية.

[٣٢٨] سورة الغضب: سطوته وشدته (مختار الصحاح، ص ٣٢٦).

[٣٢٩] أيوب ٧-٩: ٢١.

بلهجة شعرية ممتازة: أن الإنسان هو من شدة الجهل والضعف، ما لا يستطيع معه أن يسأله، فلا ينبغي له أن يَنفذ سِرَّ سُبُله.

ولم تكن نتيجة ذلك واحدة لا ريب، غير أنها النتيجة الوحيدة التي يمكنُ النفسَ الدينية أن تصل إليها، ألا إن علم الحياة والموت الأعلى أمرٌ خفيٌّ علينا، ونستطيع أن نتكلم عنه على الداوم مع أيوب القائل:

"أين توجد الحكمة؟ وأين مقرُّ الفطنة؟"[330].

"الغَمْرُ"[331] قال: ليست فِيَّ. والبحر قال: ليست عندي"[332].

"إنها محجوبة عن عيني كلِّ حيٍّ"[333]، ومتوارية عن طير السماء. الهلاكُ والموت قالا: قد بلغَ مسامعَنا خبرُها"[334].

ولا شيء يَعْدِل سفر أيوب جلالا وجمالَ شكل، وتناسبُ لغته سموَّ موضوعه!

ومن العسير اقتطاعُ فِقَرٍ من هذا السفر، الذي يجبُ إيرادُه بأسْره.

والحقُّ أن الأزليَّ إذا ما تكلمَّ، ووَصَفَ عجائبَ الطبيعة التي خلقها، ظَنَّ المرءُ سماعَهُ صدى صوتٍ إلهي.

فقد وُصِفتْ سَعَةُ الكون، ورَوْعَةُ السماء ذات الكواكب، وعظمة البحر المحيط، وتنوع النبات والحيوانات تنوعًا لا حدَّ له، وجمالُ الخيل وبأسها، وقوة النسر وخيلاؤه- وصفًا دقيقًا جزيلا.

وتجدُ عظمةَ ذاتَ أثرٍ مؤثر في هذا السؤال، الذي كرَّرَه الربُّ للإنسان الضعيف الذي يسأله:

أكنتَ تصنعُ هذه الأشياء؟ أفتَعلمُ كيف صُنعتْ؟

---

[330] أيوب ٢٠:٢٨.
[331] في الأصل: الغُمْر. وقد أثبت ما في الكتاب المقدس.
[332] أيوب ١٤:٢٨.
[333] في الأصل: وحي. والصحيح ما أثبت.
[334] أيوب ٢١-٢٢: ٢٨.

"... أترسل البروقَ فتنطلق، وتقول لك نحن لديك؟. مَن وضَعَ الحكمة في الأعصار، أمْ مَن آتى النَّوْءَ الفهمَ؟ ومَن يُحصي الغيومَ بحكمته؟ ومَن يَصبُّ زقاق السماوات؟"[335].

"... أأنتَ الذي يؤتي الفرسَ قوة؟... أبحكمتكِ يستقلُّ البازي في الجو، ويبسطُ جناحيه نحو الجنوب؟"[336].

وبلغَ شعرُ العبريين، الذي تركته لنا المزامير، وأسفار صغار الأنبياء وكبارهم، والقطع المنثورة في جميع أجزاء العهد القديم، مِن الغِنى في التآليف ما لا نَقدِر معه على غير تقديره بسوى أوصافه العامة.

وذلك الشعر غزيرٌ عال، رفيعٌ في الغالب، خصيبٌ في الصور، ذو بلاغة مؤثرة.

ولم تكن الموضوعات الدينية مصدرَ الإلهام الوحيد فيه، ففيه تنويه بالخمر والنساء والحرب. غير أن أناشيد التقوى هي التي جُمعت، وبقيت لنا.

ونعد من أقدم الشعر العبري أغنية حرب دبورة، التي توجد في سفر القضاة[337].

وترجع المزامير إلى أدوار مختلفة. أجلْ. إنَّ داود الذي عُزيتْ المزاميرُ إليه طويلَ زمنٍ كان شاعرًا ممتازًا- لا ريب. بَيْدَ أنه يستحيل أن نعرف- بين الأغاني العبرية- أيَّ المزامير من صنعه. والمزمورُ الوحيد الخاص به، هو النشيد المحزن الذي وضعه بعد موت شاول ويوناتان- على التحقيق[338].

---

[335] أيوب ٣٥-٣٧: ٣٨.
[336] أيوب ١٩، ٢٧: ٣٩.
[337] القضاة، الإصحاح الخامس.
[338] هناك اختلافات لا شك فيها، تدل على تحريف الزبور، وهو المسمى الآن "سفر المزامير"، وانه ليس كتاب داود وحده، وهي:
١- المزمور التاسع والمزمور العاشر في النسخة العبرانية، هما مزمور واحد في النسخة اليونانية، ويحمل رقم (٩).
٢- المزمور رقم (١٤٧) في العبرانية مقسوم إلى مزمورين في اليونانية، ويحمل رقم (١٤٦)، ورقم (١٤٧).
٣- عدد اثنين وسبعين مزمورًا منسوبة إلى داود عليه السلام؛ ففي نهاية مزمور (٧٢): "تمت صلوات داود

والشعر الإسرائيلي الغنائي ذو روعة كبيرة، وهو في تعبيره، وفي وحيه العام، أفضل من القصائد الحربية أو الدلالية لدى الساميين الآخرين، حتى لدى العرب[٣٣٩].

والشعر الإسرائيلي لم يؤلف من أبياتٍ بالمعنى الصحيح، بل يشتمل على إيقاع خاص، ناشئ عمًا يُسمَّى بموازنة الأجزاء.

ويُقسَّمُ كلُّ دور في الشعر العِبري إلى جُزْأيْ جملة، مشتملين على الفكر الواحد، المعبَّر عنه بكلمات متماثلة تقريبًا، وذلك على وجه يُسمع به صدى الجزء الأول في الجزء الثاني، وهذا الصدى ذو أثر مؤثر في الأذن وفي الفكر معًا.

وإليك مثالا. إليك قطعة من المزمور المئة والثاني العجيب:

"الربُّ رءوفٌ رحيم، طويلُ الأناة، وكثيرُ الرحمة".

"ليس على الدوام يَسْخط، ولا إلى الأبد يَحْقد".

"لا على حسب خطايانا عاملنا، ولا على حسب آثامنا كافأنا".

"بل بمقدار ارتفاع السماء عن الأرض، عظمت رحمته على الذين يتقونه"[٣٤٠].

بن يسى".

٤- عدد أحد عشر مزمورًا لبنى قورح.

٥- مزموران لسليمان عليه السلام.

٦- عدد اثني عشر مزمورًا لأساف.

٧- مزمور واحد لإيثان الأزراص.

٨- مزمور واحد لموسى عليه السلام.

٩- المزمور رقم (١٣٧) يثبت أن سفر الزبور كُتب عقب سبي بابل، بعد سنة (٥٨٦ ق.م)، وداود عليه السلام كان سنة (١٠٩٦ ق.م). (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ابن القيم، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، القاهرة،١٤٠٧هـ، ص١٧٢. هامش (١). وانظر أيضًا: تقديم السقا لمزامير داود، دار البشير، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

[٣٣٩] الشعر العربي في جملته شعر غنائي. صدر عن شعراء العرب في الجاهلية والإسلام. فلم يعرف العرب الشعر الملحمي، ولا الشعر المسرحي. وعبَّر عن أغراض كثيرة أهمها: الغزل، والمديح، والرثاء، والهجاء، والفخر، والحنين إلى الأوطان، وغيرها. من أبرز أعلامه الفحول في الجاهلية: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، والنابغة الذبياني. وفي الإسلام: حسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي العلاء المعري، وأبي نواس، والمتنبي. وغير هؤلاء كثير. شعرهم يفوق الشعر الإسرائيلي بمراحل.

[٣٤٠] هذه المعاني في المزمور الثاني بعد المئة.

ولا تجد عند العرب، ولا عند الساميين الآخرين، موازنة الأجزاء تلك الخاصة بالشعراء العبريين، والتي هي من مميزاتهم[٣٤١]. وتجدها، بالعكس، في بعض الآثار الأكادية القديمة إلى الغاية. وفي هذا دليل جديد على إقامة ساميّ الشمال بما بين النهرين، وعلى اقتباس اليهود لموازنة الأجزاء تلك من كلدة.

إذن، لم يكن تَفتحُ الآداب العبرية الرائع ذلك أمرًا غريزيًا، بل يرتبط بشكله ومبادئه الدينية في بيئة ثقافية شرقية قديمة جدًا.

والعبقرية الساميَّة إذا ما تُركتْ وحدها، لم تبلغ مثل ذلك السمو. وروح السامي تشابه جسمه الجاف العصبي، فهي جَليَّة رشيقة لبقة، مع قلة عمق، وفقر خيال.

وما أُبصِرَ من أمور فيما مضى، وما سُمِعَ من أقوال في غضون القرون القديمة على ضفاف الفرات، فقد مازجا بني إسرائيل في جميع تاريخهم.

وفي كلدة، اتفق لبني إسرائيل ذلك التعطش إلى معرفة بداءة كل شيء ونهايته، أي حبُّ الاطلاع الضاري، الذي كان يؤلم قدماء المجوس.

والإسرائيلي لو بقي تحت خيمته في سهوب[٣٤٢] جزيرة العرب النمطية، ما وَجَدَ من النبرات ما يزعزع به العالم، ويُقنِعُه، ويُوَلِّعُه.

ولم يكن أنبياء اليهود منصفين نحوَ بابل.

ويُنبئ إشَعْيَا بخراب بابل، فيصرخ قائلا:

"ستأتي عليك كلتا المصيبتين: الثكل، والترمل. فيُتمّان عليك مع أنواع سِحْرك، وقوة رُقاك الكثيرة".

"قد وَثِقتِ بخبثك، وقلتِ: لا يراني أحد. إن حكمتك وعلمك هما أفتناك في

---

[٣٤١] عند العرب ما هو أعظم: علم العروض، وبحور الشعر العمودي وقوافيه. وهو يجمع بين نوعين من الموسيقا: أحدهما موسيقا خارجية، وتظهر في الوزن والقافية. والآخر موسيقا داخلية، تظهر في اختيار الألفاظ والمواءمة بينها، وتقسيم العبارات داخل الشطر الشعري، والمواءمة بين الألفاظ والمعاني الدالة عليها.

[٣٤٢] سهوب: السَّهْبُ الفلاةُ. والسَّهْبُ مِن الأرض: المُستوي في سُهُولةٍ. والجمع سُهُوبٌ. وقيل: سُهُوبُ الفلاةِ نَواحِيها، التي لا مَسْلَكَ فيها. والسَّهْبُ ما بَعُدَ من الأرض واستَوَى (لسان العرب ١/٤٧٥).

قلبك، أنا وليس غيري".

"امكثي على رُقاك، وأنواع سِحْرك الذي عُنيتِ به منذ صباك...".

"فليقفْ راصدو السماء، الناظرون في النجوم، المعروفون عند رءوس الشهور، وليخلصوك مما هو آتٍ عليك"[٣٤٣].

وتلوح تلك السخرية قاسية في فم أحد أولئك الشعراء اليهود الكبار، المَدينينَ كثيرًا لكَلْدَة.

ويشابه أسمى تفتحات العبقرية البشرية أزهار الشجر، التي تَستمدُّ جمالها ونضارتها ونورها من جذورها السود البعيدة، المطمورة في التراب المظلم، ويتطلب نشوء الشجرة سنوات طويلة، وتفتح الزهرة في يوم واحد، وليس من الحق أن تزهوَ الزهرة، فتستخفَّ بالفنن الخشن الذي يحملها، والذي لا تكون بغيره!

ونحن، أولاء الذين يكونون أمام أروع المعلولات، فيَسْعَونَ في الرجوع إلى العلل الوضيعة، نُبْصِر أمرين وراء رَوْعة القصائد العبرية.

نبصِرُ الخيمة في البادية، صغيرة تجاه الآفاق النمطية التي لا حدَّ لها، ثم نُبْصِر، على ذُرْوَة معابد كَلْدَة، المجوسيَّ المفكِّرَ، وهو يحاول استخراج سر مصايرنا من السماء الصامتة.

فذكرى الخيمة الوضيعة، وذكرى المعبد المتكبر، قد عظَّمَتا مقدار الأحلام التي سَحَرَتْ الإنسانية حين أوحتا إلى الشاعر اليهودي.

---

[٣٤٣] إشعيا ٩-١٠، ١٢-١٣: ٤٧.

المراجع

أولا- القرآن الكريم.

ثانيًا- كتب في الأديان والتاريخ:

١. إفحام اليهود: السموأل بن يحيى المغربي (الحبر شموائيل بن يهوذا بن آبوان)، ط٣، تحقيق: د.محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، ومكتبة الزهراء، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢. سنن البيهقي الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٣. الكتاب المقدس.

٤. مزامير داود، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، دار البشير، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٥. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د.عبد الوهاب محمد المسيرى، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم، نسخة إلكترونية.

٦. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ابن القيم، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، القاهرة،١٤٠٧هـ.

٧. اليهود في تاريخ الحضارات الأولى: د.جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٠م.

ثالثا- كتب في اللغة:

١. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

٢. القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣. كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي- ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٤. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت.

رابعًا- مواقع إنترنت:

١. islamonline.net.

٢. ويكيبيديا- الموسوعة الحرة.

٣. www.ebnmaryam.com

٤. eternalegypt.org

٥. st-takla.org

المحتويات